الخفية فى غبطة وارتياح ، واما ان يتعرض للطبيعة من حوله صامتة وناطقة فيتحدث عن الطير والحيوان وعن النبات والشجر والجماد وسائر ما يدهشنا به الكون من صور ومشاهد متخذا من هذا المحيط الزاخر مسرحا بديعا لخياله الخالق ، وهو فى نظريته الداخلية والخارجية لا يقدم للناقد شيئا غريبا عنه ، فهو انسان مثله يرى ويحس ويتصور ويحكم ، ولئن فاته ابداع المصور المنشىء فلديه ابداع المحلل الشارح وقد تكون المقالة النقدية بانسجام بنائها وتسلسل افكارها وابماض لفتاتها وسر ايحائها ذات متعة وجدانية لدى المتذوقين .

ولكن اي ناقد الذي يمتعنا بفنه الادبي كما يقنعنا بنظره الفكري هذا؟ اننا نقرأ كل يوم فى الصحف والمجلات — حتى الرصينة منها — فصولا تتسم بسمة النقد الظاهرية ولكنها لا تؤدي وظيفته الحقيقية فكم من ناقد يتعرض الى قصة او ديوان او مؤلف فلا يلج الى خوافيه ولا يفسر مراميه — مخالفا او مؤيدا — بل يكتفي بعرض عام يلم به من يقرأ مقدمة المؤلف فى كتابه ، حتى قيل لكل موظف فى مجلة او صحيفة انه يستطيع ان يكون ناقدا ، وقد يكون عرض ابواب الكتاب والاشارة السريعة الى مضمونه مما يفيد القارىء بعض الافادة ولكن صاحب هذا العرض لا يمت الى النقاد بسبب وثيق مهما اخذ مظهرهم الخارجي فى حديثه ونحن نشعر الآن بانخفاض المستوى الادبي فى التاليف عما كان عليه فى حقبة قريبة ، ومرد ذلك فى بعض اسبابه الى ضحالة النقد الادبي ، وفقد الناقد الموجه ، الذي يملك القدرة على التسديد والتوجيه ، وليست الصفات المفروضة فى هذا الناقد المسدد بالامر المعجز ، فهي مما يدخل فى طوق نفر من الموهوبين لو تركوا الكسل الوادع ونشطوا الى العمل الدءوب .

واول صفات الناقد الهادف قوة البصيرة المستندة الى الذكاء اللامح ، فهو صاحب الراي الممتاز فى صفوة ما تنتجه العقول الممتازة من بيان ولابد ان يجد لديه من النفاذ والعمق ما يسعفه بالتفسير الهادف ، والملاحظة القوية كما يمده برصيد حي من التجربة الفنية والدراية الشخصيةبالبواعث والغايات، ومبلغ ذلك كله من نفسه التي تتوهج بالفكر وتزخر بالعاطفة والاحساس والتصور وتلك ذخائر ثمينة يلمسها صاحب الاستعداد الاصيل فى نفسه ليتصل بها الى ما يريد من التقييم والتقويم .

وهذه البصيرة المستندة الى الذكاء فى حاجة ماسة الى الاطلاع المستمر على احدث ما يجد من النظريات والآراء الدائرة فى محيطه الفني ، لان سعة المعرفة تفتح آماق النظر وتسلح صاحبها بالقوى عدده الماضية ، وكلما زادت هذه المعرفة منحت جناح صاحبها ريشا يحلق فى آفاقه المترامية ، واذا كنا نرى الآن بعض من يدابون من النقاد على الاطلاع ويحرصون على اقتطاف اشهى الثمار من الحقل العلمي ثم لا يبلغون باطلاعهم الواسع ما يريدون من صدق النقد وكمال التوجيه فذلك لان الاطلاع والواسع وان تنوعت روافده لا يفيد الناقد اذا عدم البصيرة القوية المستندة الى الذكاء اللامح ، اذ ان هذه المعارف المختلفة اغذية جيدة تفيد الجسم اكبر فائدة ولكن على شريطة ان توجد الاسنان القاضمة والمعدة الهاضمة بحيث تتحول الى دم حار قوي يمنح الجسم نشاطه ويجدد انسجته وخلاياه بالذين يمعنون فى الاطلاع الدائب دون ان يتسلحوا بالذكاء اللامح والخبرة الحصيفة لا يعطون الصورة الامينة للناقد المنشود .

وتاتي بعد قوة البصيرة وسعة الاطلاع صفة ثالثة للناقد الجيد وهي تجرده الخالص من ميوله الذاتية واهوائه الشخصية بحيث ينسى عصبيته لما يعتنق من مذاهب حين يتجه الى النص بالنقد اذ ان هذه الميول الخاصة تضع على الحقائق ستارا يحجب كثيرا من لالائها الساطع ، ونحن نعلم ان الانصاف الادبي خلق عزيز المنال لا يرقى اليه غير ذوي العزم من اصحاب المبادىء النبيلة ولكنه على صعوبة مناله موجود متحقق لدى قلة تتسم به وتصدر عنه فيما تدلى به من الاحكام ومن غرائب النفس البشرية ان صاحب التعصب الذهني قد لا يلتفت فى بعض احواله الى تعصبه بل يتجه اليه لا شعوريا تحت تاثير عوامل قوية بعيدة الخفاء فى منطقة التاثير الباطني فهو صادق بينه وبين نفسه حين يعلن اليك تجرده النزيه فى نقده اذا اردنا بالصدق موافقة النقد للاتجاه الشعوري فى راي الناقد ولكنه غير صادق حين نحلل اعماقه الدفينة التي قد يجهلها جهلا تاما لندرك ما التعصب على عينيه من غشاء ، وعلى القارىء ان يدرس ناقده دراسة وافية ليعلم مذاهبه التي يتمسك بها فى مختلف انائين الراي من سياسة وادب واجتماع ما دام يصدر عنها لا محالة ، فالتعصب المذهبي كان ولا يزال مما يضع الحوائل الكثيفة دون الصواب الصريح اذ ان صاحب الاتجاه الديني او السياسي او الاجتماعي لا يستطيع التخلص من مبادئه

الفكرية فى سهولة مفرطة ليجنح الى الحكم النزيه على اثر أدبي لا يرتضي منحاه وفى تاريخ النقد العربي امثلة كثيرة لشيوخ يعتنقون مذاهب خاصة فى الحديث والقديم تشل عقولهم عن التفكير الصحيح ، فهناك من يتعصب للجاهلين وحدهم ، ولا يكاد يفضل غيرهم فى مجال الاستشهاد وهناك من يفسح صدره فيضم الاسلاميين والامويين الى دائرة رضاه ويقف موقف السخرية مما احدثه ادباء العباسية من انتاج ، كما وجد أيضا من شيوخ النقد القديم من ينزع عنه رداء التعصب ، وينظر الى النص الادبي نظرة مجردة عن التعصب لاتجاه معين يصدر عنه فيما يقول ولعل ابن قتيبة قد افصح عن نفسه وعن غيره حين قال فى كتابه عن الشعر والشعراء : « ولم اقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد او استحسن باستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل الى الفريقين واعطيت كلا حقه وورمت عليه حظه فاني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل فى زمانه ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، وكل شرف خارجية فى اوله ، فقد كان جرير والفرزدق والاخطل يعدون محدثين ، وكان ابو عمرو بن العلاء يقول لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم وكذلك من يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي والعتابي والحسن بن هانىء فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له واثنينا عليه به ولم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » .

ولابد ان نشير الى صفة رابعة للناقد الجيد وهي الصفاء النفسي الذي يطبعه بطابع الهدوء الوادع ويمنحه اعتدال المزاج ، واطمئنان الاعصاب فلا يثور لمخالفة او يهتاج لنقيصة بل ينظر الى الاثر نظرة الحكيم العالم بالبواعث المعطوف على الانسانية فى ضعفها وكبوتها ، فهو مع النص المنقود دارس متزن يعرف دوافع القول ، ويلقى صاحبه بابتسامة الود حين يشرح وجهة نظره ويضع نفسه مكانه مصورا ما اشتجر فى صدره من الاحاسيس حين رسم خلجاته فى ما قدم من انتاج ، ولا نريد بذلك ان ينقلب الناقد تقريظا مجاملا ، بل نريد أن يكون هذا الود الانساني مدعاة الى تفهم الاثر على حقيقته من ناحية وعاملا على قبول المنقود له وانتفاعه بما يحمل من تسديد وتوجيه، فما أضر بالنقد فى حديثه وقديمه غير قوم راوا الاستعلاء والسيطرة باب المؤاخذة والنقض فشنوا حربا طاحنة كان الاولى أن تكون مسامرة هادئة حتى لقد وتر عند الناقدين أن الشدة العنيفة هي طريقة التصويب والتقييم ، كما انتقلت العدوى الى جمهرة القراء فأخذوا يتابعون أصحاب القسوة المفرطة معجبين ، وقد تعجب حين ترى بعض المتزعمين فى ميدان النقد قد نالوا بسلاطتهم المغرضة ما لم ينله الشرفاء من امناء الكلمة وأرباب الهدوء المتزن وان كان مع هذه الجمهرة المشغوفة بقسوة النقد ثلة منصفة تنفر من الضجيج المفتعل ، وتسد اذنيها لدى القرقعة الصاخبة ، وهي طائفة المستنيرين من ذوي النظر البعيد ، ومن الحظ الحسن ان يكون هؤلاء على قلتهم أداة الترجيح الحقيقية فى المعركة اذ يقولون فيسمعون .

ونحن فى عصر تقدمت فيه العلوم الانسانية فتشعبت فروعها واتسعت ميادينها وأصبحت تمد المثقف المعاصر بزاد دسم يعينه على النظر الثاقب والفكر الصحيح، واذا كان الناقد ملزما كل الالزام ان يلم الماما حسنا بخير ما ينتجه الفكر الانساني من علم وفلسفة، لتتسع آفاقه الفكرية ، فقد شهدت المعارك الادبية فى هذا العهد نقاشا حادا حول صلة هذه العلوم الانسانية بالنقد المعاصر ، فذهب فريق من الكاتبين الى تقعيد النقد ودعمه على أسس علمية ترتكز على هذه العلوم بمعنى أن تكون من علوم النفس والاجتماع والجمال أسس صالحة للنظر النقدي اذ ان عالم النفس حين يلم بالنفس الانسانية ويعلم نوازعها المتباينة وتياراتها المتصارعة وما تسببه العقد النفسية من صراع ، وما تمليه الغرائز من أهواء وميول فانه يستطيع على ضوء هذه المعرفة النفسية أن يحلل النص الادبي تحليلا يبرز مكامن القوة وأسباب الضعف فى جملته وتفصيله، كما ان عالم الاجتماع حين يرصد موقف الاديب من مجتمعه واثر المجتمع فى تكوين الاديب وتلوين مشاربه، وتنازع اهوائه فانه يلمس اثر ذلك فيما قدم من انتاج أدبي ، وربما التمس له بعض العذر فى ما يخالف وجهة النظر العامة بعض المخالفة ، وكذلك عالم الجمال الذي درس أصوله والم بمقاييسه وعرف مدى ما توصل اليه فى البحث عن حاسة الجمال وميزان الشيء الجميل فانه بمقاييسه الجمالية يستطيع أن يزن الاثر الادبي ميزانا علميا لا تميل به النوازع

الخاصة في شيء ، هذا ما ذهب اليه فريق من الباحثين وتطاحنوا من اجله مع فريق آخر يرى ان الدعوة الى تقعيد النقد الادبي ودعمه على اسس علمية ترتكز على العلوم الانسانية خطر داهم يحيط بالنقد الادبي ، لانه يصرف الناقد عن التذوق الفني الخالص الى اصطلاحات علمية تلتقي على دراسته ظلمة مبهمة ، لا تساعد على ارتقاء ذوق او تفهم احساس اذ يرون ان عمل الناقد الاول هو دراسة النص الادبي وتفسيره في افقه الادبي المتذوق بحيث يقف الناقد ليسجل خواطره الذاتية محللا مفسرا دون ان يتعالم بمصطلحات تقف كالصخور الثقيلة في طريق القارىء دون جدوى . هذا بعض ما تنازع حوله الفريقان باذلين جهودهم الشاقة في التدليل والتعليل ، فاصحاب الراي الاول يرون ان العلوم المختلفة تتشابك وتمتد لتقدم للذهن البشري غذاء يسدد نظره وينير طريقه ، ولابد من الالمام بها لنصل الى الحقائق الادبية دون انحراف ، فان العصر الحاضر هو عصر الدراسات التجريبية في كل مجال ولابد أن تطبق هذه الدراسات على الانسان ليفهم على ضوئها منازع انتاجه وبواعث خواطره ، وذلك مما يدعو الى تثقيف الناقد تثقيفا بصيرا ، لترتفع البحوث الادبية الى المستوى المنهجي ذي القواعد المضبوطة ، والموازين الدقيقة ، أما الذين يخالفون ذلك فهم فيراي دعاة التثقيف العلمي انفعاليون لا يصبرون على بحث بل يسرعون الى الاستجابة الى تاثراتهم السريعة عند القراءة العاجلة مما يدفعهم الى الشطط في الحكم والانحراف عن الجادة ، ولن يسكت اصحاب الراي الثاني عن خصومهم فهبوا يقولون انهم ينسون وظيفة النقد الحقيقية وهي دراسة النصوص الادبية ، وتحديد كل معنى وكل لفظ مع ايضاح صلة الافكار وارتباطها وملاءمة الشكل للمضمون وكل اتحام للمعارف الانسانية على هذه الدراسة مما يبعد بالناقد عن ميدانه ، ولسنا نقول بعدم جدوى هذه المعارف الانسانية للناقد فهي توسع مداركه وتنير غوامضه دون نزاع ، ولكننا نقول ان اقحامها في النقد مما يطمس بريقه ويضعف تاثيره وهم بذلك يتفقون مع اصحاب الراي الاول في جدوى هذه الدراسات كثقافة عامة للناقد ، ويختلفون معهم اختلافا يصل الى حد الضراوة والعنف في محاولة استخدام مصطلحاتهما العلمية واساليبها النظرية في عملية النقد ذاته ، ونحن معهم في أن النقد الادبي يجب الا تتكدر مشاربه بهذه التقسيمات النظرية والمصطلحات العلمية بل يظل في مستواه الفني واضحا مشرقا يخاطب الذوق والعقل والعاطفة دون غشاء ، ولدينا المثال البارز على فساد التفريع العلمي في مجال النقد الادبي بما نعرفه من انحدار علوم البلاغة في عهودها الاخيرة على يد العقليين من امثال السكاكي والقزويني والسعد وغيرهم ممن جانب مذهب عبد القاهر في الاستشفاف الذوقي المستند الى الموهبة البيانية والخبرة الادبية اذ ان هؤلاء العقليين جعلوا من بحوث البلاغة الادبية مجالا للمنطق والفلسفة ثم خلف من بعدهم خلف نظر الى هذه المباحث نظرة المماحكة والتبرير فخنقت البلاغة خنقا فيما كتبوه من متون وحواش وتقريرات؟ فالراي الفصل فيما نشب من عراك حول هذه العلوم الانسانية ان يلم بها الناقد الماما يزيد من ثقافته وعمقه على ان يبتعد عنها كل الابتعاد في مجال التطبيق الادبي اذ يقف امام النص الفني وجها لوجه دون ستار، وقد ذهب معارضو اقحام هذه النظريات العلمية في مجال النقد الادبي الى الاستشهاد باقوال اساطين النقد الأوربي مثل لانسون الفرنسي حين يقول فيما ترجمه عنه الدكتور محمد مندور « ان الاصطلاح العلمي عندما ننقله في الادب لا يلقي غير ضوء كاذب ، بل يحدث أن يلقي ظلمة ، وامعن في الروح العلمية موقف اولئك الادباء الذين لا يدعون بناء اي شيء على انموذج غيره ، بل يقصرون همهم على رؤية الوقائع الداخلة في مجال بحثهم ، والعثور على العبارات التي لا تخلف شيئا خارجا عنها ولا تضيف اليها الا اقل ما يمكن والشيء الذي يجب أن ناخذه من العلم ليس كما قال فردريك وهو هذه الوسيلة او تلك بل روحه » . واذا كان الدكتور محمد مندور في طليعة من نادوا بالابتعاد عن اقحام العلوم الانسانية في مجال النقد الادبي فقد ايد وجهته بما ترجمه عن اساتذة النقد في فرنسا من مقالات وكتب تناقش هذه المسائل ، كما لم ينس اجداده العرب حين بحث عن اقوالهم المتصلة بهذا الموضوع فنقل من ابن قتيبة قوله في مقدمة «ادب الكاتب» (1). ولو أن هذا المعجب بنفسه الزاري على الاسلام برايه نظر من جهة النظر لاحتباه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب واخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها

1) النقد المنهجي عند العرب لمندور ص 27 — النقد المنهجي ص 115 .

فغضب لذلك وعاداه وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولامثاله المسلمون وقل فيه المناظرون له . ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله ، الكون والفساد ، وسمع الكيان والاسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والاخبار المؤلفة ، راعه ما سمع وظن تحت هذه الالقاب كل فائدة ولطيفة فاذا طالعها لم يحل منها بطائل انما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه ، وراس الخط النقطة ، والنقطة لا تقسم، والكلام اربعة ، أمر وخبر واستخبار ورغبة . ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب وهي الامر والاستخبار والرغبة وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر . والآن حد الزمانين مع هذيان كثير ، والخبر ينقسم الى تسعة آلاف وكذا وكذا مائة من الوجوه ، فاذا اراد المتكلم ان يستعمل بعض تلك الوجوه فى كلامه كانت وبالا على لفظه وقيدا للسانه وعيا فى المحافل وغفلة عند المتناظرين » ، ولن نعلق على نقل الدكتور مندور عن ابن قتيبة بشيء سوى ان صاحب « ادب الكاتب » قد ذكر ما يدور من اصطلاحات العلوم فى عصره مما تداوله علماء المنطق والفلسفة والكلام من امثال الجوهر والعرض والكيف والكمية ، ولكل عصر مصطلحاته وقواعده ، فما يذكر اليوم من مصطلحات علوم النفس والاجتماع والجمال شبيه بما دار فى عصر ابن قتيبة من غوامض التعريفات ولم يكتف الدكتور مندور بقول ابن قتيبة بل عززه بما ذكره ابو القاسم الآمدي فى الموازنة بين الطائيين حيث قال بعد نقل متشعب :

« واذا كانت طريقة الشاعر غير هذه الطريقة — طريقة السهولة والوضوح — وكانت عبارته مقصرة عنها ولسانه غير مدرك لما يعتمد دقيق المعاني من فلسفة يونان وحكمة الهند ، أو ادب الفرس ، ويكون اكثر ما يورده منها بالفاظ متعسفة ونسج مضطرب، وان اتفق فى تضاعيف ذلك شيء من صحيح الوصف وسليمه قلنا له قد جئت بحكمة وفلسفة ومعان لطيفة حسنة فان شئت دعوناك حكيما او سميناك فيلسوفا ولكن لا نسميك شاعرا ولا ندعوك اديبا لان طريقتك ليست على طريقة العرب ولا على مذاهبهم فان سميناك بذلك لم نلحقك بدرجة البلغاء ولا المحسنين الفصحاء ، وينبغي ان تعلم ان سوء التاليف ورديء اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحتاج مستمعه الى تامل وهذا مذهب ابي تمام فى معظم شعره ، وحسن التاليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنا ورونقا حتى كانه احدث فيه فرابة لم تكن وزيادة لم تعهد وذلك مذهب البحتري » .

وواضح ان الآمدي يتحدث هنا عن الشاعر لا عن الناقد وقد يظن ظان ان الاستشهاد فى غير موضعه ؛ ولكننا نقول ان النقد الادبي فى حقيقته الاصيلة — عمل ادبي كالشعر ، وكاتب النقد كناظم القصيدة يجب ان يقدم نقده واضحا شفافا بعيدا عن غموض العويص من اللغة والدقيق من المصطلحات ؛ واذا كان للشاعر ان يثقف بالدراسات الانسانية كما يثقف الناقد فان مصطلحات هذه الدراسة لا يجوز ان تنتقل الى القصيدة الشعرية كما لا يجوز ان تنتقل الى الكتابة النقدية سواء بسواء .

واذا كنا نعرف ان النقد الادبي يقوم على الذوق المستشف البصير بمراقي النبوغ ومهاوي الضعف فى الاثر الادبي ، فليس لكل قاريء ان يقيم من ذوقه الخاص ناقدا يصدر الاحكام الادبية ويوزعها ذات الشمال وذات اليمين كما يشاء ، ولكن صاحب الاستعداد الفطري بالطبيعة والمكتسب بالقراءة والموازنة وسعة الخبرة هو الذي يستطيع النفاذ الى النص الادبي تحليلا وتفسيرا وحكما ، وهو القادر على ان يندمج فيما يقرأ اندماجا يوحي له بكل ما يمن من تقدير او مؤاخذة ، مستعينا بعاطفته وعقله وحسه على اداء وظيفته النقدية ومستجيبا الى هواتف نفسه فيما توحي به من ارتياح او نفور ، وفق ما ادى اليه تمرسه الطويل ومزاولته المستمرة فى محيط العمل الفني فذوق الناقد لا يقف به عند مجرد الاستحسان او الاستهجان بل يهديه الى حيثيات ما يصدر من حكم يكمن وراءه الذهن الصافي والقريحة الخصبة والحس المتيقظ لادق الخلجات وابعد اللوامح ، ونقد يخالف الناقد الذواقة زميله الذواق فى حكم ، ويكون كلاهما صحيح النظرة سليم الاتجاه لان الحلبة الادبية تتسع لاكثر من اتجاه ، ولان الطبيعة البشرية تفترق فى مدى الاستجابة وقوة الايحاء وفق ما لابس الناقد من خبرات قد تختلف فى بعض تجاريبها عن خبرات زميله، ومن هنا نجد الناقدين الكبيرين يحكمان على القصيدة او المسرحية او الرواية بما قد تفترق به الاتجاهات ، ومن البعيد ان يبلغ الاختلاف بينهما درجة التضاد والتباين وان وقع ذلك فهو من الندرة بحيث لا يمثل قاعدة مطردة اذ ان المسلم به انه توجد مع عوامل الخلاف عوامل اخرى للاتفاق تحول دون التضاد الصريح ، انما يكون هذا الاختلاف بين الناقدين

الكبيرين غالبا فى درجة الحكم ونسبته فهو يترجح بين الحسن والاحسن أو الجيد والاجود او الضعيف والاضعف ، وهذا حين يكون النقد فنيا تاثريا لا مذهبيا عقائديا حيث يلتزم الناقد باتجاه ديني او اجتماعي او سياسي يدعو اليه ، فمن الممكن اذن ان يصل الخلاف بين الناقدين الى درجة التضاد ، ومن حسن الحظ ان النفوس اصبحت تضيق بالنقد المذهبي فى مجال الادب الخالص ، وتراه عامل تعصب لا يهدف الى الحكم المجرد النزيه انما النقد ذوق خالص مثقف يستوحي النص دون تقيد أو تضييق ، وهذا الذوق هبة عليا تمنح لذوي المواهب وتصقل بالقراءة والنظر والتمرس البصير ، ويهمنا أن ننقل عن ناقد عربي كبير رأيه الخاص فى تقدير الذوق الموهوب وارتكاز النقد الادبي عليه ارتكازا يجعل كل تعليم دائب لا يكاد يغني عنه شيئا ذلك هو ضياء الدين بن الاثير حيث يقول فى مقدمة « المثل السائر » « اعلم ايها الناظر فى كتابي ان مداد علم البيان على حكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم ، وهذا الكتاب وان كان فيما يمليه عليك استاذا واذا سئلت مما ينفع به قيل لك هذا ، فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعا ، واهدى بصرا وسمعا ، وهما يريانك الخبر عيانا ويجعلان عسرك من القول امكانا ، وكل جارحة منك قلبا ولسانا ، فخذ من هذا الكتاب ما اعطاك واستنبط بادمانك ما اخطاك ، وما مثلي فيما جهدته لك من هذه الطريق الا كمن طبع سيفا ووضعه فى يمينك لتقاتل به ، وليس عليه ان يخلق لك قلبا فان حمل النصال غير مباشرة القتال .

هذه خطرات أمهد بها للحديث عن النقد العربي فى اطواره المتعاقبة لنعطى القارىء أضواء تهديه فى ارتياد طريق ممتدة الشعاب ، وهي بعد خلاصة مركزة لبعض ما يدور حول هذا الفن من آراء تشغل النقد والناقدين .

الحضارة الإسلامية

بين الماضي ... والمستقبل (١)

الأستاذ أحمد عبد الرحيم السايح "القاهرة"

يمتاز الاسلام بانه دين الحضارة الانسانية الكاملة : بمعنى انه كان منذ نزوله دين عبادة ودين معاملة .

وانه انشا لونا من الحضارة عرف باسمه . وهو الحضارة الاسلامية .

ومفهوم كلمة الحضارة مفهوم تطور مع الزمن لاسيما فى تاريخ الحياة العربية الاسلامية . والمفهوم الاصيل لكلمة الحضارة فى اللغة العربية انها : —

تعنى حياة الحضر والاقامة الثابتة فى المدن والقرى وعكسها البداوة . وهي حياة التنقل من البادية . ولقد عرف العرب الفارق بين حياة البادية وحياة الحضر منذ كانت بادية وكان حضر .

وكان اول من تصدى لهذا التمييز على اساس من الدراسة والتسجيل والتحليل العلمي هو العلامة عبد الرحمن بن خلدون . **بل ان هذا العالم العربي هو اول من عالج شئون الحضارة بطريقة علمية تحليلية .**

على انه اذا كان ابن خلدون قد بلور مفهوم الحضارة عند العرب على انها ذلك النمط من الحياة المستقرة . والذى يناقض فى مضمونه البداوة . فينشيء القرى والمدن ويضفي على اصحابها فنونا منتظمة من العيش والعمل والاجتماع والعلم والصناعة وادارة شؤون الحياة .

اذا كان ابن خلدون قد بلور هذا المعنى التاريخي واعتبر الحضارة غاية العمران فان مفهوم **الحضارة فى العصر الحاضر قد امتد الى الوان من المعنى** ، هي ابعد واوسع مما رءاه ابن خلدون فى عصره ، وفى بيئته العربية فى انتقالها الاجتماعي والسياسي والمدني من البادية الى الحضر .

ولئن كان بعض العرب القدامى قد استعملوا لفظ « مدني » بمعنى « اجتماعي » فان مفهوما اخر ظهر واتصل بها ، اصبح الآن يعرف باسم المدنية .

وابن خلدون نفسه كان سباقا ايضا فى هذا المجال اللفظي فاستعمل كلمة « **التمدن** » وكان يعني بها « **التحضر** » .

على ان تلك المفاهيم اللغوية انما نشات فى بيئة عربية كانت حياة الحضر فيها تقابل حياة البادية . ولكن هذه الحالة من التقابل لا تكاد توجد بصورتها التقليدية الا فى جهات قليلة جدا خارج العالم العربي .

ولذلك فان **لفظ الحضارة فى مفهومه العالمي ومفهومه الحديث المعاصر بصفة خاصة قد اصبح اكثر اتساعا مما كان يدل عليه فى مفهومه اللغوي والتقليدي** واذا كان اصل معنى الحضارة « بفتح الحاء وكسرها » الاقامة فى الحضر . فان المعاجم اللغوية الحديثة تعرف الحضارة فى استعمالها المولد

المعطاء بانها : **مظاهر الرقي العلمي والفني والادبي والاجتماعي والاقتصادي في العصر .**

وقد يكون من المفيد معرفة مفهوم لفظتين اخريين لهما في الحياة الانسانية شان كبير واثر واضح . وهما : **الثقافة والمدنية .**

فاصل مادة **التثقيف** في اللغة العربية : التشذيب والتهذيب والتقويم والحذق والفطانة والمعاجم اللغوية تعرفها في الاستعمال المحدث بانها : العلوم والمعارف ، والفنون التي يطلب الحذق فيها. ونستطيع ان نقول انها : تشمل كل ما يتصل بالروح والفكر والعقل والذوق والمشاعر ، وهي حصيلة الحياة الانسانية في مجالات الحياة كلها . وتجمع انماط الحياة الروحية والفكرية واللغوية والادبية والفنية . ولها صورها التي تتعدد وتتلاقى بين الشعوب والتي يتصل بعضها بتراث للانسانية مشترك ، ويتصل بعضها الآخر بحياة جماعات بذاتها دون سواها .

ومادة مدن وتمدن متصلة بالمدنية والعيش فيها والاخذ باسباب الحضارة وقد اتصل لفظ المدنية في المفاهيم الجارية بالجانب المادي والمظهري من الحياة. وذلك من حيث مقوماتها الطبيعية ومنشئاتها الملموسة .

وكذلك من حيث الانماط المعيشية في اسسها المادية . وفي صورها المحسوسة في حياة المجتمع . وما يتصل بهذه المظاهر المادية والمحسوسة في حياة الجماعة من قواعد ونظم واعراف .

والحضارة بمفهومها الحديث هي : الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة ومجموع الحياة في صورها وانماطها المادية والمعنوية .

وبعبارة اخرى هي : الخطة العريضة التي يسير فيها تاريخ كل شعب من الشعوب على الارض ومنها الحضارات القديمة والحضارات الحديثة والمعاصرة ومنها الاطوار الحضارية الكبرى التي تصور انتقال الانسان او الجماعات الخاصة من مرحلة الى مرحلة .

ولئن كان الاسلام قد **امتاز بانه دين الحضارة الانسانية من حيث تقديس حرية الفكر ، واعزاز حرية الانسان وكرامته . وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس في ظلال اخاء شامل ، وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الاخلاقية الرفيعة .**

فان واقع الامر يبين للدارس والباحث والمفكر ان الحضارة الاسلامية استمدت مقوماتها ومناصرها ووجودها واسباب نمائها من الاسلام ذاته .

واذا كان ظهور الاسلام قد سبق في الجزيرة العربية وما جاورها حضارات اقدم منه . كما سبقته ايضا في البلاد التي انتشر فيها الوان من الحضارات القديمة ذات الطابع المحلي او الاقليمي .

فان الاسلام بطبيعته الذاتية استطاع ان يضفي على البلاد التي شملها لونا مشتركا من الفكر الديني والحياة والمعاملات والعلاقات الانسانية الاجتماعية والسياسية والثقافية والاقتصادية حتى اصبح هناك قدر حضاري مشترك بين المسلمين في مختلف الاقطار وبلاد الدنيا .

دعائم الحضارة الاسلامية :

1) ان الاسلام قد انطوى على **طاقة روحية** جعلت منه قوة فاعلة بل ان فاعليته في هذه الناحية شملت حياة الافراد والجماعات من جميع الجوانب. فهي ثورة روحية وثورة في العبادة والنفوس وثورة في الحياة العملية والمعاملات . وثورة في النظم الاجتماعية بل وفي نظم الحكم وصلة الحاكم بالمحكوم وكذلك في تشريعات الجماعة والاسرة .

والشيء المهم في هذه القوة الفاعلة انها كانت اصلاحا جذريا يمس اساس الاوضاع في حياة الناس .

2) ان الاسلام كان منذ يومه الاول **دين دعوة** له رسالة يجب على المسلم ان يبلغها الى الناس كافة . وكانت حياة الشعوب واتصالاتها قد اهلتها لان تتلقى الرسالة الالهية التي فرضت على اصحابها ان يبشروا بها بين الناس شرقا وغربا .

وفكرة الدعوة في العقيدة الاسلامية قد واتتها ظروف الانتشار في النطاق العالمي وبالتالي تمكن الاسلام من ان ينشر طابعه الحضاري كعقيدة وكنمط للحياة .

3) كان الاسلام **دينا سهلا غير معقد** ولا مركب في عقيدته ونظمه وتعاليمه وكان في الوقت

ذاته ، دينا مباشرا يتصل فيه الانسان بخالقه دون وساطة .

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اذا سالت فاسال الله واذا استعنت فاستعن بالله » وقد كانت البساطة في العقيدة الاسلامية شاملة للعبادات ، والمعاملات جميعا .

وما نظن دينا يطلب الى الفرد شهادة ابسط من شهادة الاسلام على عمقها وعظمتها « لا اله الا الله محمد رسول الله » عبارة سهلة رائعة تقف بالانسان على عتبة الاسلام موقفا سهلا .

وكانت القاعدة الثابتة لدى من بشر بالاسلام ، ان الدين يسر لا عسر « ومن هنا كان الاطمئنان الروحي والفكري اول ما يستشعره من يدخل في دين الله خصوصا وان اعتناق العقيدة كان لابد ان يأتي مباشرة دون وساطة او وكالة . على انه من الحق ان نذكر ان هذه البساطة لم تنته بالضرورة الى ذلك القدر من المرونة الذى قد يشوه التطبيق .

ولعل المقوم الاصيل الذى لم يجعل البساطة تنقلب الى مرونة مشوهة ، هو ان **القرءان كان وعاء للعقيدة كلها** . حفظها على مر العصور واضفى عليها الطابع المشترك في مختلف البيئات وتحت مختلف الظروف .

4) كان الاسلام **دينا رحبا يقبل الاجتهاد** ، ويدعو اليه في حدود اصول العقيدة . وكان يدعو الى سبيل العقل كما يدعو الى سبيل الضمير والحق . ومن هنا كانت الدعوة الى النظر والى المعرفة اساسا من اسس الدعوة الاسلامية وكان التفتح البصير مفتاح الدعوة الحضارية .

والاسلام في رحابته الحضارية استطاع ان يمتص الوان الحضارة في البلاد التى انتقل اليها وان يسبغ عليها طابعا اسلاميا شاملا .

5) كان الاسلام **دينا للدنيا والآخرة معا** وفي هذا قد اختلف عن كثير من الديانات والعقائد التى ينبع بعضها في ماديات الحياة ثم يضفي عليها مسحة من العبادة او الفلسفة ويتبع بعضها الآخر في مجال الروحية التجريدية .

وقد ترتب على ما اتصف به الاسلام من **جمع بين الروح والمادة** انه اصبح دينا رحبا حيا يلائم حياة الناس ومنطق التطور . كذلك اصبح الاسلام اكثر التصاقا بالحياة في مفهومها الحقيقي وصورتها الواقعة . وفي الوقت ذاته اصبحت العقيدة على اتصال دائم بالبناء الحضاري في مجال المدنية من جهة والثقافية والروحية والعقلية بل والاجتماعية من جهة اخرى .

6) **كان الاسلام دين قيم وضوابط سلوكية مادية ومعنوية** . وهذه القيم يتصل بعضها بحياة الافراد ويتصل بعضها الآخر بحياة الجماعات .

فالاسلام اعطى نظاما متكاملا للحياة سواء من وجهة نظر الفرد أم من وجهة نظر الجماعة . وهذا النظام شمل علاقات الافراد وكثيرا من نواحي الحكم ذاته .

وقد يكون من ابرز القيم التى استند اليها نظام الحياة الاسلامية فكرة القيمة الذاتية للانسان . واستنادها الى فكرة المسؤولية الفردية « كل نفس بما كسبت رهينة » « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » ثم فكرة الاخاء التى تجعل الانسان المسلم ينتمي الى جماعة المسلمين ويحس بانه عضو من اعضاء الجماعة المسلمة يعمل لمصلحة الجماعة والجماعة تسعى للارتفاع بمستوى الفرد . فهو جزء من كل يكمله ويكتمل به ويعطيه ويأخذ منه ويحميه ويحتمي به .

وليس في الاسلام انفصال بين مسؤولية الفرد نحو المجتمع ومسؤولية المجتمع نحو الفرد لان هاتين المسؤوليتين هما اولى وسائل الاسلام في الاصلاح الانساني العام .

والاسلام من ناحية اخرى اعترف بالقيمة الذاتية للافراد باعتبارهم مدينين بوجودهم لله مسئولين امامه عن اعمالهم « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم » والاسلام حينما جعل الفرد مسئولا عن اعماله والمسئولية ـ هنا تقع عليه وحده ـ الاسلام جعل ذلك ليرفع من قيمة الانسان الذاتية ويصل به الى اعمال الخير والقدرة على الدفع والبناء . وفي الوقت نفسه الانسان لبنة من لبنات المجتمع الانساني يعمل لمصلحة الجميع .

والاسلام لا يعترف بالفردية التى يدمج بها الفرد في المجتمع قسرا ورغما عنه كما في الشيوعية لان الشيوعية من الوجهتين العملية والنظرية تستغني عن الفرد ان لم يخدم غرض الدولة او ان لم يتبع طريقة الحزب دون نقاش .

7) البيئة بعواملها المحلية وموقعها الجغرافي **قد ساعدت على اعطاء الحضارة الاسلامية ما كان لها من طابع ومن مكانة** . ولقد كانت الجزيرة العربية ذاتها منطقة وصل بين اطراف العالم عند ملتقى القارات الثلاث في العالم القديم . ومن شواطئها تمتد بحار الشمال بادئة بالبحر المتوسط ، وبحار الجنوب بادئة بالبحر الاحمر والخليج العربي . وقد كان عدم اتصال المياه بين الشمال والجنوب سببا في أن شبه جزيرة العرب كانت نقطة تغيير في وسائل المواصلات وفي ظهور دور الوساطة الذي كتب للعرب ان يقوموا به ولم يكن الامر في ذلك بالطبع مجرد التوسط الجغرافي على اهميته . وانما كان الامر اوسع واعمق .

فهو توسط من ناحية الطبيعة البشرية ، ومن ناحية السلوك الانساني ، ومن ناحية الاعتدال ، في كل ما يتصل بالمادة والمعنى في الحياة . وهي امور اتصلت كلها بطبيعة البيئة العربية . ومن هذه البيئة الوسط انتشر الاسلام شرقا وغربا بالبر والبحر على حد سواء .

8) القرءان الكريم ذاته وذلك ان القرءان لم يكن كتاب دين ، يحث على العبادة والتوحيد . وما يتبعها من عقائد وعبادات واوامر ونواهي ، كان دستورا من **اعظم الدساتير الصالحة التي عرفتها الانسانية في تاريخها الطويل الممتد عبر الزمن وذلك بما تضمنه من القواعد الرصينة الكفيلة بقيام المجتمع الانساني السليم** .

ولقد كان اول اثر من ءاثار القرءان في الفكر الانساني اهتمامه الواسع بالعلم وذلك ان العلم اساس التقدم ومرءاة نهضة الامم وعنوان حضارتها . وقد كانت عناية القرءان بالعلم تفوق حد الوصف ، تامل القرءان وتدبر ءاياته تجده يدعو الى تحكيم العقل والمنطق في مظاهر الكون واحداث الماضي . والقرءان نفسه مشتق من القراءة والقراءة ادنى مفاتيح العلم للانسان واول مانزل على محمد عندما كان يتحدث في غار حراء خمس ءايات هي قوله تعالى « اقرا باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرا وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ».

ففي هذه الآيات الخمس بدا الوحي الالهي بالقراءة في اول آية وكررها مرة اخرى في الآية الثالثة واوضحها مؤكدا ما رمى اليه من معنى وهو التعليم وزاد التاكيد بذكر القلم ثم لفت النظر الى الاصل الذي خلق الله منه الانسان وهو العلق وفي قوله تعالى « علم الانسان ما لم يعلم » ما فيه من مكنون اسرار هذا الكون مما سيعرفه الانسان عبر مسيرته في هذه الحياة وحتى نهايتها .

واول قسم في القرءان اقسم به رب العزة في ثاني ءاية نزلت بعد الامر بالقراءة صدر بحرف من حروف الهجاء وكان بالقلم وبما يسطر العالمون « ن والقلم وما يسطرون » فاول سورة نزلت من القرءان سورة العلق ومن العلق يخلق الانسان وكانت السورة التالية في النزول بسورة العلق هي سورة القلم « وبالقلم يكتب ويتعلم الانسان » .

فانسانية الانسان لا تكون الا بالخلق ولا تتم الا بالعلم « الرحمن علم القرءان، خلق الانسان علمه البيان » .

وما الطف قول الشاعر :

اذا افتخر الابطال يوما بسيفهم
وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلم الكتاب مجدا ورفعة
مدى الدهر ان الله اقسم بالقلم

والقرءان دائما يهتف بالانسانية « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » والقرءان يرفض ان يقف بالعلم عند حد بل يفتح للانسانية باحة ليس لها نهاية .

ولقد وضع الاسلام القواعد السليمة لوزن المعلومات . وتمييز صحيحها من زائفها فقرر ان المسائل لا تاخذ طابعا علميا ولا ترتقي الى درجة معلومات الا اذا قامت عليها بينة واستندت الى دليل ومن ثم كان القرءان ينادي دائما « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » ، « هل عندكم من علم فتخرجوه » « ائتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم » « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسؤولا » .

وهذه الآية الاخيرة تنهى عن اتباع ما لم يقم به علم يستند الى حجة سمعية او رؤية بصرية او براهين عقلية وهي طرق الاستدلال التي تنحصر في المعقليات والسمعيات والمحسوسات .

وهذا الميزان الذى وضعه الاسلام يدفع الناس دفعا الى تلمس الادلة . ويمشي بهم فى طريق النور والمعرفة ومظاهر الكون والرقي .

ولقد دعا **الاسلام الناس ان يمعنوا فكرهم فى هذا الكون الفسيح** وينعموا النظر فيما حوى من عجائب ، ليستغلوا ما حواه من موارد ويستكنهوا اسراره واسباب الحياة فيه قال تعالى « قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدا الخلق » .

وقال تعالى « قل انظروا ماذا فى السماوات والارض » ولم يكتف القرءان بهذا بل ردد كلمة « العلم » بجميع اشتقاقاتها وتصريفها فى سوره وءاياته زهاء سبعمائة وخمس وستين مرة وهذا وحده يكفي لتقدير المنزلة التى رفع القرءان « العلم » اليها . وكلمة العلم فى الاسلام عامة تشمل مختلف قطاعاته وتعدد اغراضه ومراميه .

وهذا كله دليل على ان **الشخصية الانسانية لا يرقيها شيء غير العلم** « قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

والقرءان مليء بالايحاءات لتنمية القوى العقلية المفضية الى النظر فى البراهين الدالة على قدرته سبحانه وتعالى الداعية الى التفكر والتامل فى هذا الكون العجيب الذى يمتليء بالظواهر الطبيعية التى تسير فى نظام ودقة عجيبين .

9) اللغة العربية نفسها فهي : من اعرق اللغات العالمية منبتا واعزها جانبا واقواها جلادة ، وابلغها عبارة واغزرها مادة وادقها تصويرا لما يقع تحت الحس ، وتعبيرا عما يجول فى النفس وذلك لمرونتها على الاشتقاق ، وقبولها للتهذيب ، وسعة صدرها للتعريب

نزل القرءان الكريم بلسانها فجعلها اكثر رسوخا واشد بنيانا واقوى استقرارا وبفضل القرءان صارت ابعد اللغات مدى واوسعها افقا واقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذى تعيشه الانسانية .

واستطاعت فى ظل عالمية الاسلام ، ان تتسع لتحيط بابعد انطلاقات وترتفع حتى تصل ارقى اختلاجات النفس .

فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات تعجز اللغة العربية عن تصويره بالاحرف والكلمات تصويرا صحيحا حي المقاطع واضح السمات بارز القسمات .

هذه اللغة فتحت صدرها لتراث الانسانية الخالدة ومعارف البشرية الرائعة كما اتسعت لمقومات الامة الانسانية الاسلامية التى شرقت بالحضارة وغربت .

برزت الى الوجود قوية تتمتع بقوة لغة بالغة اشدها ، فما عرف التاريخ لها طفولة وما بدت الا لتكون لسان الحضارة الاسلامية فى ظلال القرءان .

ولقد اشترك مع اللغة العربية لغتان اخريان بكونهما لغتين عموميتين لافكار دينية وعقائدية ومذاهب سياسية انتشرت بين شعوب مختلفة ؛ وهاتان اللغتان هما اللغة اليونانية واللغة اللاتينية .

فقد كانت اللغة اليونانية تستعمل من « كمبانيا » فى ايطاليا الجنوبية الى الجزر البريطانية ومن نهر الراين الى جبل الاطلس .

واستعملت اليونانية من اقاصي صقلية الى شاطيء دجلة ومن البحر الاسود الى تخوم الحبشة لكن ما اضيق ذلك الانتشار اذا ما قوبل بانتشار العربية التى امتدت الى اسبانيا وافريقيا حتى خط الاستواء وجنوب ءاسيا وشمالها الى ما وراء بلاد التتار فقد استولت لغة العرب الكتابية على جميع انحاء الشرق الاسلامي .

لقد امست اليونانية واللاتينية فى صف اللغات الميتة منذ هبطت مدنيتاهما فما الذى حفظ اللغة العربية حية ؟

قالت الكاتبة « مي » ان الذى كان باعثا على قيام الحضارة العربية الاسلامية هو الذى ما زال حافظها الى اليوم وهو القرءان، لقد كان الاسلام يرمي الى التوحيد سواء فى الدين والسياسة واللغة .

لذا ستظل اللغة العربية حية ما دام الاسلام حيا فمن ذا الذي لا يعرف للقرءان فضله فى بقاء اللغة العربية حية ؟ ومن ذا الذى يجهل ان اللغة العربية باقية ما بقي الاسلام ؟ من ذا الذى لا يعترف بما ادته هذه اللغة من خدمة للانسانية وبانها كانت الصلة الوحيدة بين حضارات الماضي وحضارات اليوم .

لقد اندثرت جميع اخواتها السامية من ارامية وكنعانية وكلدانية وسريانية واشورية وغيرها فى حين بقيت هي على رغم ما مر بها من عصور الركود وما فتئت تفيض قوة وحيوية .

انها الرابطة النفسية التى تربط بين اهل البلاد والصيغة الجميلة التى تودعها مكنوناتها العقول والقلوب جيلا بعد جيل .

هذه اللغة وسمت مباديء ومثلا عليا لم تضق بها ولم تنكل عن احتمال اعبائها بل فى ظل حضارة الاسلام مرنت وامتصت وتفاعلت ونمت نماءها الطبيعي المتطور من داخلها وهضمت خلاياها القوية كل ما قدم لها من خارج محيطها حتى تعملقت واتسعت ءافاقها وانتشرت ظلالها وفضت فى دورانها العظيم على كل ما يقف فى طريق انبعاثها وتفوقها وكل ما يعرقل انطلاقها ويثقل اجنحتها عن التحليق والارتفاع واستطاعت بقوتها الذاتية ان تقشع اللهجات الغامضة وتخرج من كل جولة ــ جالتها فى صراع ــ بغذاء مفيد ودماء جديدة وقدرة فائقة وطاقة خلاقة .

هذه اللغة دعمها القرءان اذ اخذت تفرض سلطانها فى بيئات جديدة فى اقطار الارض ولم تمض حقب طويلة حتى غدت لغة الشعوب من اواسط ءاسيا حتى جبال البرانس فى شمال اسبانيا ولم تستطع لغة من لغات هذه البيئات ان تثبت لها او تحول بينها وبين سيادتها .

وقد يكون من اسباب ذلك انها لغة القرءان وقد يكون من اسبابه قوتها وجمالها الفني بحيث لم تستطع ان تقف لها لغة من لغات هذه البيئات ومهما تكن الاسباب فانها اصبحت لغة قوية لامم وشعوب قد تختلف وتتباين فى اجناسها واصل نشاتها ولكنها لا تلبث ان تعيش لها وبها وتحيا فيها حياتها المعنوية الادبية والعقلية .

والعربية ما تزال لغة الشرق الاسلامي من الخليج الى المحيط الاطلسي تتوهج جذوتها وترسل اشعتها وشررها الى كل مكان حتى فى امريكا تناول منها المهاجرون الى تلك الديار النائية اقباسا لا تزال تضيء فى المجلات والآثار الادبية .

وواضح انها اجتازت آمادا واحقابا متطاولة من الزمن وقد المت بها خطوب كثيرة ولكنها وقفت فى طريقها كالصخرة فى مجرى السيل يلم بها ثم يزايلها ، وليس معنى ذلك انها ظلت جامدة لا تتطور بل لقد تطورت اطوارا كثيرة بحكم ما تلقت من ثقافات الفرس واليونان والهند ومصر واسبانيا اللاتينية . فوسعتها جميعا وتمثلتها تمثلا منقطع النظير وكانما اصبحت نهرا كبيرا تتدافع اليه جداول شتى من المعرفة والفكر وهو لا ينحرف ولا يغير وجهته بل يجري غزيرا زاخرا متفتقا مقتحما كل ما يصادفه من حواجز وسدود بين الامم والشعوب ، ولقد وحدت العربية بين هذه الامم والشعوب فاذا هي عالم واحد مهما تدانت وتباعدت ومهما شرقت او غربت .

لغة كريمة انضجها الزمان المتطاول واخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرهف والادراك النافذ.

لغة تكاد تصور الفاظها مشاهد الطبيعة وتمثل كلماتها خطرات النفوس وتتجلى معانيها فى اجراس الالفاظ تتمثل فى نبرات الحروف كانما كلماتها نبضات القلوب ومشاعل الحياة ، فالمعاني المحسة والمعقولة مبينة فى الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الاشياء المتشابهة فتضع للشبيه لفظا غير ما وضعته لشبيهه ادراكا للفرق الدقيق بينهما فاذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلا كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف ءالة الضرب وموضعه من الجسم واذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلا بكلمات مركبة لكل صفة دلت العربية على كل حلية فى الانسان وكل صفة فى عينيه وحاجبيه وانفه وفمه واسنانه وغيرها باسماء خاصة وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل فى المفردات يتجلى فى التركيب مدهشا ، فكل كلمة لها فى الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت فقل تحس بها الكلمة نفسها فتعطي او تاخذ صوتا مكافئا لهذه المكانة فالكلمة الاصلية لها اقوى الاصوات وهو الضم والاخريات لها الفتح والجر .

وما هذا الا ضربا من الحياة فى الالفاظ والتركيب يبين عن ادق الاحساس والطفه واذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة، فيها مادة ووزن فخذ المادة او اخلقها او استعرها من لغة اخرى ثم صبها فى قالب من قوالب الاسماء والافعال وصورها بالقوالب او الاوزان، فمن سمع

فاعلا اومفعولا ادرك ان هذا الوزن فحركاته وسكناته له معنى يلازمه فى المواد كلها وبهذا امتازت العربية واستبانت خصائصها حتى نفت من نفسها كل كلمة اجنبية ما لم تخضع لاوزانها وقوانينها وللاسماء اوزان وللافعال اوزان فما لا تزنه هذه الاوزان فهو اجنبي وبهذا بقيت على الدهر المتطاول نقية .

ولقد اختبرها التاريخ الطويل فلم تعجز ولم تعي ولم تضق بكل ما ادركه الانسان من علم وثقفه من صناعة بل وسعت حضارة القرون المتطاولة والامم المختلفة غير كارهة ولا مكرهة .

ولقد اراد الله لها ان تكون لغة كتابه وترجمان وحيه وبلاغ رسالته فاشتملت على العالم الحسي والعقلي مصورا فى كلمات وءايات وجوزيت على هذا خلودا ما خلد للانسان عقل وقلب وما استقام له ادراك واحساس .

وتقلب الزمن وتوالت المحن وثارت الفتن والعربية ثابتة ناضرة وامحت لغات وخلقت لغات وبدلت لغات وحرفت لغات والعربية هي العربية لم تمح ولم تتغير ولم تبدل .

ما آية الخلود بعد هذا ؟

ولم تبق العربية لغة العرب وحدهم بل ثقفتها الامم الاخرى واولتها من العناية والحفاوة اكثر مما اولت لغاتها احيانا فصارت **لغة العلوم والآداب للعرب وغير العرب حقبا طويلة ما بين اقصى المغرب واقصى المشرق ولا تزال على تبدل الاحوال وتوالي الغير لغة ادب وعلم فى كثير من الامم الاسلامية غير العربية .**

وما تزال لغات هذه الامم مترعة بالفاظ العربية وما تزال تستمد من العربية الحروف والكلمات .

وقد حوت العربية على مر العصور ادبا لا تحويه لغة ادبا مواطنة ما بين الصين الى بحر الظلمات كما يقول العلماء ــ وزمانه اربعة عشر قرنا من الزمان .

ولا نعرف فى آداب العالم قديمها وحديثها ادبا اتسعت به المواطن هذا الاتساع وامتدت به الاعصار هذا الامتداد .

انتشرت العربية وحدها بقوتها الخاصة وبقوة الاسلام وقوة القرءان وبهذا **استطاعت العربية ان تكون لغة عالمية لاول مرة فى التاريخ الانساني .**

ولاول مرة تجد فى التاريخ لغة تنتشر بهذه القوة فقد **انتشرت اليونانية فى جميع البلاد الشرقية ولكنها لم تصل الى اعماق الشعوب** ولم تغير لغة من اللغات التى كانت قائمة فى تلك الايام فى بلاد الشرق **ولكن اللغة العربية غلبت كل هذه اللغات غلبتها وتعمقت شعوبها .**

والرومانيون استطاعوا ان ينشروا اللاتينية فى المغرب الاوربي فى فرنسا وفى بريطانيا وفى اسبانيا وحاولوا ان يجعلوها لغة منتشرة فى شمال افريقيا فلم يفلحوا .

ولكن العربية استطاعت ان تقهر اليونانية فى الشرق وان تقهر اللغات الشعبية التى كانت منتشرة فى هذه البلاد وان تقهر اللغة الفارسية نفسها ، ثم ان تقهر اللاتينية فى المغرب العربي وفى الاندلس وان تصبح هي اللغة العالمية التى يتكلمها الناس فى الشرق والغرب جميعا .

هذه اللغة منذ تم لها الانتشار لم تكن لغة حديث فحسب ولكنها كانت **لغة حديث ولغة سياسة ولغة ادارة ولغة الدين** وكانت فى الوقت نفسه **لغة التفكير والانتاج الادبي والعصري** وفى اقل من قرنين كانت **هذه اللغة قد استطاعت ان تسع كل الثقافات التى كانت معروفة فى العصور القديمة .**

اساغت ثقافة اليونان على سعتها وعمقها وصعوبتها واساغت فلسفتهم وعلومهم وطبهم وفنونهم .

واساغت ثقافة الفرس وثقافة الهند بعد ذلك الثقافات التى كانت متوارثة بين السامية

فالعربية : **اداة الفكر الحي** نقل الناس اليها كتب السماء المنزلة مثل التوراة ، والانجيل والزبور وسائر كتب الانبياء من السريانية والعبرانية .

ونقلوا اليها ما جاء به الحكماء وسائر ذلك من كتب الفلسفة والطب والنجوم والهندسة والحساب.

10) وبجانب هذا وذاك كانت هناك مقومات تاريخية وبشرية تتصل بالعصر الذى ظهر فيه الاسلام وانتشرت عقيدته . ثم بالعنصر البشري والتكوين السكاني للمجتمعات الاسلامية .

فاما من العصر فان الاسلام كان ختام الاديان السماوية وكان بذلك رباطا لها من الناحية

التاريخية . كما كان في الوقت ذاته تصحيحا روحيا لصور من الديانات السابقة التي شوهها الزمن . وكان على الاسلام أن يصححها وينقيها ويرد اليها اصالة الفكر التوحيدي .

ولقد كان هذا كله مصدر قوة ودفع للفكر الاسلامي وما اتصل به من حضارة . وكذلك كان الامر بالنسبة لتصدي الاسلام لمعتقدات غير سماوية.

فهذا التصدي كان الحافز الاصيل للفكر الاسلامي والنظم الاجتماعية في ان تحتفظ باصالتها من جهة وان تجدد حيويتها وتوسع نطاق رحابتها ومرونتها من جهة اخرى .

ومن هنا انطوى التفاعل الاسلامي مع الوان الحضارات التي التقى بها على قوة غلبت كل التحديات فانتشر طابع الحضارة الاسلامية في فعالية لم يعرف لها مثيل .

ومما يذكر ان **قوة الاسلام في انتشاره وترسيخ معالم حضارته قد تضاعفت بفعل مقوم انساني آخر عظيم هو تنوع السلالات التي دخلت في الاسلام .**

ثم هناك ظاهرة اخرى ترتبت على كل هذه الجوانب والعوامل وهي ظاهرة الاتصال والاستمرار الزمني في الحضارة الاسلامية .

ان هذه الحضارة تمتاز بان كل مقوماتها الجوهرية تنبع من وحي رسالة السماء التي تمدها بالروح والقوة والتماسك . وتوجهها الى الموازنة بين مقاصد الروح ومطالب البدن والبعد عن الزهد المعطل للعمل وعن المادية الجامحة الفاسدة

فالحضارة الاسلامية :

1 – في نظام عقيدتها تقوم على توحيد الله وافراده بالعبادة والتعظيم والتمسك بما شرع من آداب السلوك والمعاملة .

2 – وفي نظامها السياسي تقوم على الشورى والنزول على رأي الجماعة والمساواة بين الناس واحترام حقوق الانسان والتزود بكل اسباب القوة والمنعة ، والدفاع عن مقدسات العقيدة والوطن .

3 – وفي نظامها الاخلاقي تقوم على خلوص النية ونقاء الضمير والتمسك بقيم الخير والحق والتزام الآداب الفردية والاجتماعية التي تسير بالانسانية الى الكمال والتقدم

4 – وفي نظامها الاجتماعي تقوم على الاسرة المتماسكة القائمة على ركائز من المودة والرحمة والاخلاص والاحترام والتعاون والتعارف . وقيام كل راع بمسئوليته .

5 – وفي نظامها الاقتصادي تقوم على تبادل المنافع واتخاذ المال وسيلة لا غاية واحترام الملكية الفردية .

6 – وفي نظامها التشريعي ، تقوم على اصول رئيسية واسعة . وقد تمثلت هذه الناحية في ثروة من الفقه الاسلامي . تجلت فيها عبقرية الحضارة الاسلامية وتمثلت فيها حرية الاجتهاد الفكري .

7 – وفي نظامها الثقافي تعتمد على طلب المعرفة ايا كانت واستخدام العقل في كسب المعارف وتسخير الطبيعة لسعادة الفرد والجماعة . واعتبار الثقافة ايا كان مصدرها ومهدها تراثا عاما للانسانية .

8 – وفي نظامها الفكري تقوم على حرية الفكر واستقلال الارادة . فلم تنهض العقول ولم تتحرك الا بعد ان عرفت ان لها حقا في طلب الحقائق

ونستطيع ان نصل الى ان الحضارة الاسلامية:

1 – وصلت بين قديم الحضارات وجديدها بما حفظت من تراث الاقدمين وما اضافت اليه من صنع عبقريتها المبدعة الخلاقة .

2 – انقذت العالم القديم مما كان يعيش فيه من فوضى وانهيار واضطراب في الحضارات واستعباد وظلم اجتماعي .

3 – اعطت العالم حضارة جديدة تقوم على عقيدة التوحيد في اسمى صورها ومجتمعا جديدا يقوم على التعاون والتسامح والحرية والتعايش السلمي بين الجميع

4 – اعطت الانسانية ذخيرة حية ضخمة من المعارف افاد منها الغرب في عصر الاحياء والنهضة ، واعتمد عليها العالم الاسلامي في يقظته الحديثة وفي بناء نهضته المعاصرة .

5 ـ وضعت بعض اصول المنهج العلمي الحديث كطريقة الشك عند الغزالي والاحاطة بجميع جوانب الموضوع ايجابا وسلبا . ولقد جاء في رسائل اخوان الصفا دستور علمي ينحصر في تسعة احكام . وهاهي كما جاءت في الرسالة السابعة :

السؤال الاول هل هو :
يبحث عن وجود الشيء او عن عدمه

السؤال الثاني ما هو :
يبحث عن حقيقة الشيء

السؤال الثالث كم هو :
يبحث في مقدار الشيء

السؤال الرابع كيف هو :
يبحث عن صفة الشيء

السؤال الخامس اي شيء هو :
يبحث عن واحد من الجملة او عن بعض من الكل

السؤال السادس اين هو :
يبحث عن مكان الشيء او عن رتبته

السؤال السابع متى هو :
يبحث عن زمان كون الشيء

السؤال الثامن لم هو :
يبحث عن علة الشيء المعلول

السؤال التاسع من هو :
يبحث عن التعريف للشيء .

6 ـ فتحت للانسانية آفاقا جديدة في البحوث الانسانية كفلسفة التاريخ والاجتماع عند ابن خلدون . وعلم البصريات على يد «ابن الهيثم» وابتدا مرحلة جديدة في تطور علوم الرياضة على يد « الخوارزمي » و « عمر الخيام » .

7 ـ ساعدت بآدابها على نهضة الاداب في اوربا وفتحت آفاقا جديدة امام شعراء الغرب وكتابه .

8 ـ ساعد حلفاؤها وقادتها بسلوكهم الاخلاقي وبنماذج المروءة والشرف التي تحلوا بها على اشاعة المثل الاخلاقية الرفيعة مما كان قدوة لمن احتك بهم في السلم او في الحرب .

ولقد تلمست اوربا انها حضارة المسلمين العلمية فاستقت من روافدها المعرفة والفلك والجبر والهندسة والكيمياء والطب والفلسفة والزراعة وسائر انواع الفنون الحضارية وبنى رجال اوربا بما تعلموه في معاهد المسلمين بالاندلس وبما نقلوه من علوم اسس النهضة الحديثة التي ظهر نجمها في القرن الثامن عشر وازدهر في القرن التاسع عشر وتالق في القرن العشرين .

والاسلام بدعوته الى العلم هو الذي خرج رجال الحضارة وجهابذة العلم واساتذة الدنيا وعمالقة العلماء امثال :

ابن الهيثم والكندي والفارابي وابن سينا والبيروني والفرغاني والطوسي والبغدادي والدينوري والرازي والقزويني والانطاكي والزهراوي والغافقي والخوارزمي والصوفي وجابر والجاحظ وابن البيطار وابن النفيس وابن حيان وابن حمزة والادريسي والمسعودي وابن بطوطة وابن زهر .

وهذا **ابن الهيثم** (965 ـ 1039) يبحث في السهول والاودية ويجول فيها طولا وعرضا حتى يضع قواعد علم الضوء .

وابن الدجيلي يسهر على قمم الجبال العالية يحدق في الكواكب والنجوم ليحدد افلاكها ويعرف ابعادها ويقيس محيط الكرة الارضية بالاجهزة الدقيقة .

وابن النفيس يجري التجارب والاختبارات حتى يثبت ان الدم ليس سائلا مستقرا في الاوردة والشرايين المبثوثة في الكائن الحي . بل هو سائل متحرك يدور في جميع أجزاء الجسم وذلك قبل ان يكتشف (هارفي) الدورة الدموية بثلاثة قرون .

وابن مسكويه الذي يسبق فلاسفة اوربا وعلماءها بثمانية قرون في علوم الاخلاق والفلسفة والتهذيب والبيلوجيا .

وجابر بن حيان يحلل عناصر الطبيعة وتفاعل المواد المختلطة حتى يضع اصول علم الكيمياء ، وابن يونس يسبق العلماء في اختراع بندول الساعة (الرقاص) .

هذا كله في الوقت الذي كانت اوربا فيه تعيش في ظلمات الجهل والفوضوية والهمجية والتاخر ولم ينقذ اوربا من ورطتها التي كانت واقعة فيها الا نور

الاسلام وما زالت أسماء العلماء والمصطلحات التى اعطاها هؤلاء العلماء المسلمون لغرائب العلم ما زالت حية نابضة فى جميع اللغات رغم ما نالها من تحريف وتغيير ، ولقد سجل التاريخ آيات هذه الحضارة العربية الاسلامية باعزاز كما شهد لها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه الذين لا يبغون من بحوثهم ودراساتهم الا مرضاة العلم فى ذاته . والذين لا تسيطر عليهم العصبية الهوجاء والسطحية العمياء .

واننا نسوق الى العربي بعض النقول التى جاءت على لسان فلاسفة العالم والتى تشهد صراحة وضمنا لمجد الحضارة الاسلامية .

والواقع أن الاسلام ليس فى حاجة الى اقوال هؤلاء فهو قوي بذاته لكننا ناتي بها لما نراه من ان كثيرا من كتابنا ومؤرخينا يغمطون حق حضارة العرب. وان شئت بعبارة أقرب فقل انهم يجهلونها ولا يعرفون عنها الا النذر اليسير والى هؤلاء واولئك بعض اقوال كواكب الاستشراق والبحوث العلمية والدراسات الواسعة .

قالت الكاتبة الالمانية الدكتورة (سيجريد هونكه) ان هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها ابناء الصحراء من العدم من اعجب النهضات العلمية الحقيقية فى تاريخ الحقل البشري فسيادة ابناء الصحراء التى فرضوها على الشعوب ذات الثقافات القديمة وحيدة فى نوعها وان الانسان ليقف حائرا امام هذه المعجزة العقلية الجبارة والتى يحار الانسان فى تحليلها وتكييفها .

وقالت ايضا : « وان أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية وان الدين الذى فى عنق اوربا وسائر القارات للعرب كبير جدا »

وقال العلامة «كاربنسكي» ان الخدمات التى اداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وان الابحاث الحديثة قد دلت على تعظيم ديننا للعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى.

وقال الفيلسوف الفرنسي « الكسي لوازون » : خلق محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل للاخلاق وكتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسالة تتعارض مع الاسس الاسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرءان والقوانين الطبيعية .

وقال العلامة « دربير » المدرس بجامعة (هارفارد) بامريكا فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) : « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل باول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة 638 ميلادية اي بعد موت محمد بست سنوات ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استانسوا بجميع الكتب العلمية وقدروها حق قدرها .

ولو اردنا ان نستقصي كل نتائج هذه المعركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم .

« ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذى نالته الصناعات فى عصرهم فقد استفادت منها فنون الزراعة فى اساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وسنن النظم الزراعية الحكيمة وادخال زراعة الارز وقصب السكر والبن وقد انتشرت معاملهم ومصنوعاتهم لكل من انواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ويجودون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من سبكها وصنعها واننا لندهش حين نرى مؤلفاتهم من الآراء العلمية وما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر .

ويقول فى مواطن اخرى : « ان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوربيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك اوربا وامراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها .

وقال العلامة « سديو » فى كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها اينما حلت اقدامهم وتسربت عنهم الى اوربا فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها . وقال العلامة « جيبون » المؤرخ الانجليزي :

« كان من اثر تنشيط الامراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمي فى المسافة الشاسعة بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة، ويروى عن وزير لاحد السلاطين انه تبرع بمائتي الف دينار لتاسيس جامعة علمية فى بغداد ووقف عليها خمسة عشر الف دينار سنويا وكان عدد طلبتها ستة آلاف لا فرق فيهم بين غني وفقير .

وقال « دربير » : أول مدرسة انشئت للطب فى أوربا هي المدرسة التى اسسها العرب فى (بالرم) من

ايطاليا واول مرصد اقيم فيها هو ما اقامه المسلمون فى اشبيلية باسبانيا وانهم رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما اخرى لم تكن موجودة من قبلهم .

ولقد امتاز العرب فى الجمع بين فروع العلم والادب وفاقوا غيرهم فى هذا الميدان ومن يطلع على كتب محمد بن موسى الخوارزمي يجد ان المؤلف جمع بين الجبر والادب .

وانظر الى كتب البيروني تجد ان الادب والرياضيات اجتمعا متعانقين .. قال العلامة «درابرا» : « لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا عن الاسلوب الذى توخوه في مباحثهم وهذا الاسلوب هو الذى اوجب لهم الترقي الباهر فى الهندسة والمثلثات .

وقال الكاتب الهندي « فسواني » : التهذيب العربي هو الذى انشأ فى آسيا واوربا نشأة جديدة وانسانية جديدة .

ان هذه الاقوال التى جاءت على لسان علماء افذاذ لمرضاة العلم فى ذاته تشهد صراحة وضمنا وجملة وتفصيلا لحضارة المسلمين ومدى فاعلية الحضارة الاسلامية الانسانية التى لمست الانسانية فيها معاني السيادة ومست القلوب فيها معاني السعادة واعتلت فى ظلها صروح المجد .

هذه الحضارة ستظل خالدة خلود الابد باقية بقاء الدهر مدوية دوي الآذان لا ينضب لها معين ولا ينتهي لها مدى ولكن ذلك رهين برجوع العرب الى منابع عزهم ، هذا واذا كانت الحضارة الاسلامية لها من الدعائم والركائز المشرفة ما وصل بها الى ذروة ما قدر للانسانية من التقدم ولها من التعاليم والقيم والآداب ما يسمح لها ان تكون لها فلسفتها الخاصة بوجودها .

فهل يمكن لهذه الحضارة ان تعود الى اشراقها من جديد فتساهم فى اعطاء الحضارة الانسانية ذخيرة من القوة والقدرة .

الحقيقة التى لا يسوغ انكارها أن آداب وتعاليم الاسلام كفيلة بان تجعل العالم الاسلامي فى وضع يسمح له بأن ينمي فلسفته الخاصة به والتى تنبع من الفكر الاسلامي . ويتضح ذلك من الحقائق التالية :

اولا ـ ان العالم الاسلامي يشمل منطقة جغرافية تمتد من المحيط الباسفيكي شرقا الى المحيط الاطلسي غربا . مجتازة جاليات ودولا اسلامية ذوات طاقات بشرية واقتصادية وعقلية وحضارية لا حدود لها ومنطقة العالم الاسلامي تتميز بانها :

1 ـ تقع من العالم موقع الحزام من جسم الانسان . بعيدة عن القطبين ومسالمة من الاعاصير والطوفانات والثلوج والبراكين. ولها دفء معين يساعد على تنوع الحاصلات الزراعية وتناسل الحيوانات البرية .

2 ـ وانها تمتلك من شواطيء البحار الكبيرة والصغيرة ما يمكنها من الاشراف على عدد كبير من اعظم موانى العالم كما بها من الانهار والمنابع ما يجعلها من اخصب المناطق واكثرها ازدهارا ونماء .

3 ـ وان فيها من موارد الحضارة كالماء والنفط والمعادن والحاصلات الحيوانية والزراعية ما يمكنها من اغناء الحضارة الانسانية وزيادة الامن والرخاء.

4 ـ وبها من مواطن السياحة ما يرقى بها الى اسمى ما قدر من التقدم والسمو والمجد والسؤدد .

5 ـ وان التجانس المذهبي بين سكان العالم الاسلامي يجعل المنطقة فى منأى عن الانشقاق الملحوظ فى المذاهب الاخرى ويقرب بينها ويحفظ وحدتها ويزيدها تفاعلا وتفتحا وتقدما .

وتلك امور تجعل العالم الاسلامي قوة ايجابية مهيبة الجانب مخطوبة الود . يتهيب العدو بأسه ويخشى سلطانه وتجعله ايضا مهيأ للاسهام فى بناء الحضارة الانسانية واعادة صنع الحياة وانقاذ البشرية من الهوة السحيقة المتردية فيها ووهدة الفوضوية والاباحية والاستعمار والالحاد .

ثانيا ـ واذا انتقلنا من الحديث عن الناحية الجغرافية والموقع وما لهما من خصائص ومميزات وما لهما من كنوز وخيرات الى الحديث عن الاسلام نفسه فاننا نجد انه دين العقيدة الحية الصحيحة التى جاءت وقت بلوغ العقل البشري طور رشده وكماله وتفتحه .

العقيدة التى تقر التوحيد الخالص والتنزيه البالغ ارقى صوره واشكاله عقيدة ترفع من قيمة الانسان لانها تصله بالله الواحد الذى لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى افعاله . « قل هو الله

احد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا احد » .

ولا تبيح تلك العقيدة الاسلامية للانسان ان يتعلق بالمخلوقات او يدعو ويعبد غير الخالق الذى أبدع وفق حكمته جميع ما يشاهد ويحس « اذا سالت فاسال الله ، واذا استعنت فاستعن بالله » . والاسلام من جهة اخرى دين اجتماعي يراعي حاجة الانسانية ومصالحها الحيوية فى حدود الحق والفضيلة وباعتبار انه دين توحيد واجتماع امكن للاسلام ان يقيم المجتمع على اسس القيم الاخلاقية العليا وان يرضي مطالب الروح والجسد حتى ترافقا فى اعتدال وكونا حقيقة الانسان المهذب والمؤمن الكامل .

وبالجمع بين السمو الروحي والتهذيب الاجتماعي امكن للاسلام ان ينتشر فى اركان الدنيا بالعدل والحق والاخلاق وسمو المباديء .

والاسلام وليد العقيدة الرائقة الرائعة التى تطهر النفس وتذكي القلب وتربي الخلق وتغذي العقل وتوقف الغريزة عند حدها وتعطي كل مطمع من مطامع الانسان معناه الذاتي وسيره الطبيعي .

والعقيدة الاسلامية : عقيدة استعلاء من اخص خصائصها انها تبعث فى روح المؤمن بها الاحساس بالعزة من غير كبر وروح الثقة فى غير اغترار وشعور الاطمئنان فى غير تواكل .

ثالثا ــ ان الاسلام متصل بشؤون الحياة والحكم والفكر ، والاسلام قادر بطبيعته الذاتية على مواجهة تطور الازمان واختلاف البيئات والمجتمعات ، وله من القدرة والقوة ما يمكنه من التباور والتناسق بحيث لا يتوقف ولا يجمد ولا يتعارض مع طبائع الامم فى حركتها الداخلة الممتدة عبر العصور .

والاسلام ينظر الى الحياة نظرة كاملة وشاملة ويتدخل فى جميع شؤونها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وبالاضافة الى انه دين يهتم بالجانب الروحي من الانسان ويريد منه ان يتحمل الخلافة فى الارض بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بامانة وقوة وحزم وعزم . نادى الاسلام بالحرية والاخاء والمساواة ورسم وسائل تحقيقها واقام موازين الحق والانصاف والعدالة ودعا الى التعاون والتبادل والمودة والالفة .

ويمكن ان نقول بعبارة أوجز : انه ما من شيء يهم الانسانية ويشغل بالها وياخذ قسطا من عنايتها الا وله فى الاسلام هدى وبيان واهتمام وما من شيء يلامس حياة الناس او يتعقبها الا وله فى الاسلام عرق ينبض واصل عريق .

ولقد اكتملت قوة الاسلام بوحدة العقيدة وجامعة اللغة العربية واشتراك المجتمع فى مظاهر العبادات والعادات والتقاليد زيادة على توحيد الاهداف والغايات من الحياة .

رابعا ــ ان تعاليم الاسلام الغراء صالحة لكل زمان ومكان وفى الاصلاح الاسلامي من كليات وجزئيات ما هو كفيل بقيام مجتمع انساني تسوده روح الصدق والمحبة والتعاون والبر والوفاء والاخلاص ولكن ذلك رهين برجوع المسلمين الى منابع عزهم ومجدهم والتمسك بأسمى القيم الاخلاقية الاسلامية والعمل بتلك القيم والاسترشاد بالتعاليم الحية النابعة بالسمو والمليئة بالجدوات المتقدة التي لا يخبو ضوءها .

قال الدكتور جورج سارطون : « ان المسلمين يمكن ان يعودوا الى عظمتهم الماضية والى زعامة العالم السياسية والعلمية ــ كما كانوا من قبل ــ اذا عادوا الى فهم حقيقة الحياة فى الاسلام والعلوم التى حث الاسلام على الاخذ بها . »

وقال العلامة دامبري : « ان روح نظام المسلمين هو الدين والذى احياهم هو الدين والذى يكفل سلامتهم فى المستقبل هو الدين ليس الا » .

ويرى الدكتور فيليب حتى : « ان الشرق الاسلامي هو اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما انه فى فجر طور جديد فى حياته السياسية وهو دور يمكن ان نسميه دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية . ولنا ان نتكهن ان ابناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيقومون بقسطهم فى خدمة المدنية والانسانية » .

والدكتور سمث استاذ ورئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية اوهايو يرى انه لو امكن اثارة التماسك الاسلامي فى سبيل اغراض ايجابية وتكتيل الامم الاسلامية الكثيرة المختلفة فى وحدة حية لامكن ان تصير هذه الوحدة قوة ايجابية فى العالم ..

(يتبع)

نقد الكتب

الدكتور ممدوح حقي
رخبير في المكتب الدائم ،

امامي الآن ثمانية دواوين لشمانية شعراء من الكويت . وقد قرأتها جميعا بلهفة لاني ما كنت اتصور ان هذه الدوة العربية الصغيرة بحجمها ، القليلة بعدد سكانها ، قادرة على ان تنتج مثل هذا العدد الضخم من الشعراء ، في مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن، ولو كان في المجلة متسع لنقدها وتقريظها تفصيلا لفعلت ، وانها لجديرة بذلك ، ولكني مضطر الى عرضها مجملة ، تعريفا بها ، ولئلا يفوت قراءنا العلم بالنهضة الادبية المتوثبة في هذا القطر الحبيب .

ولاحظت ان ثلاثة من هذه الدواوين انشئت باللهجة الكويتية ، ويسمونها هناك « **اللغة النبطية** » فهمتها كلها ولم يفتني منها الا القليل النادر ، وهذا ما يؤكد لي بان اللهجات العربية، مهما تباعدت الاقطار فيما بينها ، هي متقاربة جدا سواء بمفرداتها ام بتراكيبها . كما اني لاحظت ارتفاعا بمستواها عما كنت اعهده فيها قبل بضع سنين ، وهذا دليل واضح على الاتجاه الطيب الذي تتجه اليه اللهجات العامية في جميع بلاد العرب نحو اللغة الفصحى . ومع اني اعجبت بشاعرية اصحاب هذه الدواوين الثلاثة ، السادة : **وليد جعفر في « آهات قلبي »** و**عبد الله عبد العزيز الدويش** ، و**صقر النصافي** ، فاني لا اراه اكثر من شعر محلي .

اما الدواوين الخمسة الاخرى ، فلغتها عربية فصيحة على تفاوت فيما بينها قليل

1 ـ **ديوان صقر الشبيب** 460 صفحة من القطع الكبير .

2 ـ **نفحات الخليج** ، **عبد الله سنان محمد** 260 صفحة من القطع الكبير .

3 ـ **بيت من نجوم الصيف** ، **علي السبتي** 172 صفحة من القطع الصغير .

4 ـ **النور من الداخل** ، **محمد الفايز** 260 صفحة من القطع المتوسط .

5 ـ **الطين والشمس** ، **محمد الفايز** 98 صفحة القطع الصغير .

اما الاول والثاني فشعرهما اتباعي النسيج ، البيت فيه شطران والقافية موحدة . الا ان موضوعاتهما متلاحمة مترابطة كانها قصة ذات مقدمة وموضوع ونهاية ، وفي ذلك تفوق حسن على كثير من الشعراء الاتباعيين المعاصرين ، لولا ان لغتهما ليست من القوة بحيث تشبه لغة كبار الشعراء .

واما الثلاثة الاخيرة ، فقد سلكت طريق الشعر الحر ، اصابت في بعضه وضعفت في بعضه الآخر . وموضوعاتها على العموم رومانسية تذكرنا بشعراء النهضة الاوائل في لبنان وسوريا ومصر .

وفي طريقة العرض ميل الى الرمزية ، فديوان الطين والشمس مثلا ، يعرض الشاعر في كل صفحة ثلاثة ابيات ، واحيانا بيتا واحدا ، واحيانا صورة رمزية كرجل مصلوب ، او رجل عريان قاعد على راس تل وفوق راسه غراب ... وكلها من الرسم القريب من السريالي . والديوان كله يقرأ بنحو نصف ساعة!!

الا ان شاعرية هذا الشاب قد تستوقفك احيانا للتامل والتفكر .

واحب ان اشير هنا الى كتابين آخرين تلقيناهما من الكويت كذلك هما :

1 ـ دراسات كويتية ـ فاضل خلف 154 صفحة من القطع الكبير .

2 ـ ادباء الكويت في قرنين ـ خالد سعود 288 صفحة من القطع الكبير .

وهما كتابان جيدان يوضحان كثيرا مما غمض في تاريخ الكويت الادبي ، ويشرحان كثيرا مما تعقد على الدارس فهمه. وقد اتكات عليهما وساعداني مساعدة مجدية في تفهم شعراء الكويت فصيحهم ونبطيهم .

اما الكتاب الاخير الذي وقفت عنده كثيرا على صغر حجمه (93 صفحة من القطع الصغير) فهو « **مقالات عن الكويت ، لاحمد البشر** » فقد عرض جزءا من تاريخ الكويت الادبي القديم وجلا ناحية لم يسبقه اليها احد : اثبت بان **جبل كاظمة** الذي دفن فيه غالب بن صعصعة والد الفرزدق ، ما هو الا المكان المسمى الآن «**امليرة**» قرب الجهراء. وان «**الفرزدق**» نشا بين قومه هناك ، وانه كان يثوب اليه بعد كل سفر . وعلى هذا **فالفرزدق سيد شعراء بني امية الاوائل ، ما هو الا شاعر كويتي** ، واذا لم يكن للكويت من فخر في تاريخها الادبي الا انها انجبت مثل الفرزدق لكفيت بذلك فخرا .

الموسيقى لغة الروح

الأستاذ ابراهيم الدرويش المصري
مفتش التربية الموسيقية في سوريا

علي الدرويش علم من اعلام الموسيقى فى القطر العربي السوري .

ياخذ موقفنا من الموسيقى اوضاعا ثلاثة :

1 ـ نستمع اليها كوسيلة لترفيه والطرب ، والاستماع الفني .

2 ـ نبحثها كعلم وفن وصناعة ومهنة .

3 ـ نبحثها فى اثرها العام كثقافة وتذوق وتوعية وتوجيه ، وفى اثرها التربوي الخاص ، وهو ما يهمنا فى هذه الكلمة .

الموسيقى فن رفيع بل لعله ارفع الفنون . هي لغة الروح المجردة عن المادة ، المنطلقة من سلاسل الحياة وقيودها . هي لغة نبيلة تستطيع ان تانس اليها كل روح ويطمئن اليها كل قلب لانها**الصدى الذي يعبر عن مشاعر لا تستطيع لغة الكلام ان تجاريها فيها.** وارتباط الموسيقا هذا الارتباط الوثيق بالعاطفة الانسانية يجعل تاثيرها امضى واكثر من غيرها من الفنون الجميلة فى توجيه الروح والقلب وفى تفتح الطاقات وتفجيرها ، كخطوة اولى فى سبيل توجيه الفكر البشري .

لان تاثير الموسيقى لا يزول بتاثير النفحة واللحن المنبعث من الآلة الموسيقية او من الحنجرة البشرية ، اذ انها تنقل المشاعر الى عالم جميل علوي يستسيغه العقل ويعمل فيه بحرية وحيوية .

ولما كان التفكير يتاثر بالمؤثر الخارجي وبالظروف الآنية التي ينشط فيها ، فان النتيجة التي يصل اليها فى حالة التاثر بالموسيقى ، هي نتيجة لا شك انها من مقومات الفهم التام والجمال المجرد الذي يتجه ناحية الخير .

ولم يعد اثر فن الموسيقى محصورا فى اطراب الاذن واشباع الحواس ، كنوع من الترف والكماليات كما كان شائعا فيما مضى ، بل تعداه الى تادية خدمات جليلة فى كل ميدان من ميادين التربية والمادة والمجتمع .

وكانت الحرب العالمية الاخيرة اختبارا قويا لقيمة هذا الفن فى ميادين عدة كالتوعية والتوجيه والترقية .

ولقد ادت الموسيقى دورها من قديم كوسيلة للدعاية المثمرة . فقبل قرن مضى تقريبا كانت « بولونيا » لا تعدو كونها امة مستعبدة تتناوب حكمها دولتان قويتان ، روسيا والمانيا وكانت اخبار كفاح شعبها الباسل ـ نظرا لتاخر وسائل المدنية آنذاك ـ تصل مشوهة لا تلفت ولا تثير الا عطفا وقتيا . لقد اخفقت السياسة وفشلت الدعاية فى لفت انظار العالم الى نصرة بولونيا الجريحة ولكن الموسيقى نجحت فيما اخفقت فيه جميع الوسائل ونجح موسيقى فى استدرار العطف على امته واثارة ضمير الانسانية فى صالح بلاده. فقد صور شوبان فى مقطوعته(البولونية)

كفاح شعب جريح وصور في الحانها نداء الحق المهضوم فاذا بهذه المقطوعة الموسيقية تسدي خدمة لم تسدها السياسة قط الى شعب مناضل مكلم . وتحررت بولونيا لان موسيقى (شوبان) قد حركت الضمير البشري .

ومندي اكثر من مثال على ان **الموسيقى تستطيع باشراف الدولة ان توجه الجماهير والشباب والاجيال في التربية والتوعية الهادفة** ، توجيها كليا .

مثالنا على ذلك موسيقى (فاكنر) الالماني التي ادت دورا هاما في حياة المانيا ، فقد اوحت مقطوعاته الى الشعب الالماني روح النضال والكفاح في سبيل البقاء والاتحاد ، وكانت عاملا قويا في تكوين المانيا ايام حرب السبعين ، ثم استخدمت ثانية في النهوض بالمانيا بعد هزيمتها في الحربين العالميتين الاولى والثانية فقد ادخلت في البرامج الدراسية وفي الشهادات العامة وبثت في نفوس الشعب الالماني فوجهته الى التفاني في محبة الوطن والقومية وخدمت اغراض السياسة ايضا .

وقس على ذلك نشيد (المارسيلياز) الذي كان من عوامل حماية الثورة الفرنسية وقد الف كلماته ولحنه الثائر (روجيه دي ليل) . وانا شيد معركة بور سعيد العربية عام 1956 واخص بالذكر نشيد (الله اكبر) ، ثم بعض اناشيد الثورة في الجمهورية العربية السورية . وهناك امثلة لا حصر لها .

ولم يقتصر عمل الموسيقى على الميادين الروحية بل تعدتها الى الميادين العملية ، اذ ان استخدامها في المصانع خلال الحرب الاخيرة وما بعدها ، قد ادى الى زيادة الانتاج زيادة كبيرة ملحوظة .

ولا اغالي اذا قلت بان الدول الكبرى كالولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي ومعظم الدول النامية واخص بالذكر سويسرا التي ظهر فيها المربي (جاك دلكروز) **مؤسس مدرسة التعليم والتربية الموسيقية** عام 1913 ـ كانت سباقة في ادخال الموسيقى كوسيلة من وسائل التربية ، فقد اثبتت الاختبارات العلمية الدقيقة ان **الموسيقى تلعب دورا هاما في تكوين شخصية ونفسية الطفل في سنيه الاولى وفي دور المراهقة والشباب ايضا .**

ولذا اصبحت **الموسيقى من مقومات الحضارة الحديثة** كعلم وفن وصناعة ومهنة ووسيلة خطيرة من وسائل الدعاية والتوجيه والتوعية والتربية والتعليم.

كما ان الموسيقى تريح العقل كما يريح الاستجمام الجم لماتبثه من نشاط فكري نشاهد اثره واضحا جليا في تفكير الطفل وزيادة قابليته للفهم والاستيعاب.

وهكذا نلمس للموسيقى آثارا ثلاثة في التربية:

1 ـ اثرها في التوجيه والتربية العامة للشعب .

2 ـ اثرها في تربية الروح القومية والمحبة للانسانية .

3 ـ اثرها التربوي في المدرسة .

لهذا كان لا بد لنا اذا ما اردنا ان نقوم على تربية جيل جديد يتوقف عليه ازدهار شان امتنا **ان نأخذ بعين الاعتبار مسالة ادخال الموسيقى بصورة جدية في وسائل التربية كعنصر اساسي للتربية النفسية والخلقية وتقريرها في مناهج التعليم العام بجميع مراحله** واعتبارها في الشهادات العامة ، والعمل على افتتاح المعاهد الموسيقية لرعاة الموهوبين والمعاهد الشعبية لتثقيف الهواة ، وتنظيم الامور الموسيقية والعناية بها باخلاص ونزاهة في كل من الاذاعة والتلفيزيون . على ان يكون هدفنا دوما توجيه فن الموسيقى توجيها سليما للتاثير على عقلية رجال ونساء الغد بما فيه دعم بناء الامس .

واري ان تكون الموسيقى قطعة من حياة الطفل ذكرا كان ام انثى وخاصة في مرحلة رياض الاطفال والتعليم الابتدائي ، واري ان تربي غرائز الطفل ونفسيته تربية موسيقية وخلقية قويمة بتوجيه فني تربوي ، يستطيع أن ينفذ الى مشاعره ويسمو بها .

وبهذا تسهل مهمة المربي والمربية لان الموسيقى اداة فعالة في تدريب عقلية الطفل وتهذيب نفسيته وتوسيع مداركه في الطريق التي ترسمها قواعد التربية .

ولنضرب مثلا للمجهود العربي في هذا المجال بحياة علم من الاعلام الموسيقى في القطر العربي السوري **هو الاستاذ علي الدرويش** : فقد ولد وتوفي في حلب 1884 م ـ 1952 م .

كان جده الاكبر من اصل مصري عربي ، خلف ولدا اسماه ابراهيم ، كان ابراهيم هو والد علي الدرويش يشتغل بتجارة الاقمشة وقد نشا نشاة عصامية دينية ، تعلم القراءة والكتابة في الكتاتيب

والمدارس الدينية وكان ذا صوت حسن ومن اتباع الطريقة المولوية «التكايا المولوية » في العهد التركي العثماني ، فكان لذلك اثر كبير ورثه عنه ابنه الصغير علي ، وعندما كان الفتى الصغير علي يدرس في المدرسة الاشرفية الابتدائية ، ينتهز العطل المدرسية وخصوصا ايام الجمعة ليزور والده في التكية للاستماع الى حفلاتهم الخاصة ، فكان يستمع طويلا الى اناشيدهم وموسيقاهم الصوفية ويعجب بها ومن هنا نشأ تعلقه بالموسيقى وشغفه بها .

انس شيخ التكية « عامل جلبي » بالشاب علي صوتا جميلا وميلا قويا للموسيقى فاوكل اليه مهمة اداء الاذان في شهر رمضان .. ثم طلب من والده ان يلقنه الحان الطريقة المولوية واغانيهم كي يشترك ابنه علي في حفلاتها وكانت تضم جدران التكية المولوية في ذلك الحين « عثمان بك » الملقب « كجوك عثمان » مؤذن السلطان عبد العزيز سابقا الذي نفاه السلطان عبد الحميد عند توليه الحكم وعلى يدي « عثمان بك» تلقى علي دروسه الاولى في مبادىء الموسيقى وقواعدها الاولية . ثم زار مدينة حلب في هذه الفترة من الزمن موسيقار تركي من اشهر نافخي « الناي » يدعى « شرف الدين بك » وقد اخذ عنه علي الشاب دراسة النفخ بالناي ؛ وفي تلك الاثناء كان يجمع ما بين دراسته في المدرسة اثناء النهار ودراسته الموسيقية في التكية اثناء الليل . وعندما انهى دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة العثمانية للعلوم الدينية سابقا وهي « الخسرفية » والكلية الشرعية حاليا وكان من اساتذتها المرحوم الاستاذ الكبير الشيخ بشير الغزي . وعندما انهى دراسته في هذه المدرسة بعد اربع سنوات كان ما زال منكبا على دراسته الموسيقية وقد لقب بالشيخ علي لتقدمه في الفن الموسيقي على اقرانه وتفوقه فيه ، ثم لدراسة في المدرسة العثمانية ولقب بالدرويش ايضا لانتسابه الى الطريقة المولوية فاطلق عليه الشيخ علي الدرويش ، وكان يطلق عليه ايضا « علي دده » بالتركية لانتسابه الى الطريقة المولوية . لذلك فقد اتقن هذا الشاب اللغتين العربية والتركية وعمره لا يتجاوز الثانية عشرة .

وقد عينه بعد ذلك شيخ التكية (عامل جلبي) في وظيفة (قدوم زادباشي) رئيس جماعة الموسيقيين في « المطرب » وهو المكان الذي كان يجلس فيه جماعة العازفين والمغنيين اثناء حفلاتهم الخاصة ،

وبقي في هذا العمل زهاء عشرة أعوام متوالية ، كان خلالها دائم البحث والتنقيب عن أصول الموسيقى ودقائقها بصورة عامة والموسيقى والالحان والمؤلفات العربية التركية بصورة خاصة . لذلك فان الشيخ علي تأثر كثيرا بأساليب والحان الموسيقى التركية التي طعم بها الموسيقى العربية بمؤلفاته والحانه، وقد لحن عددا كبيرا من الالحان باللغة العربية ومن الالحان الآلية كالبشارف والسماميات ؛ ومن الالحان المولوية باللغة التركية وهي الحان مطبوعة بطابع الخشوع والوقار والمعروفة باسم « آيين شريف » ومن الحانه آيين كردبلي حجاز كار وغيره ..

رحل الشيخ علي رحلته الاولى من حلب الى امارة المحمرة في ولاية البصرة وقد ارسل في طلبه امير المحمرة على راس فرقة موسيقية غنائية وذلك بعد ذيوع شهرته خارج البلاد السورية،وعندما سافر الى المحمرة كان عمره حوالي السابعة والعشرين عاما بعد ان استقال من وظيفته في المولوية نهائيا . وكان تاريخ سفرهالى المحمرة وعودته منها ما بين عام 1912 الى عام 1914 م . وقد عاد الى بلده حلب في بداية الحرب العالمية الاولى فقد امضى في ضيافة (الامير خزعل) سنتين كان فيهما موضع حفاوته واكرامه مع اعضاء فرقته الموسيقية .

انتهز فرصة وجوده في تلك البلاد فزار البصرة وبغداد وطهران ومنها سافر الى الهند وحل في كراتشي وبومباي ثم قفل راجعا الى حلب ابان الحرب العالمية الاولى أيام حكم السلطان رشاد كما ذكرت.

وفي عام 1914 حتى عام 1923 م . سافر الى البلاد التركية قاصدا استنبول بصحبة شيخ تكيه حلب « عامل شلبي » وهناك في استنبول أتم الشيخ علي دراسته العالية في الموسيقى في معهد « دار الالحان » الشهير . وقد عين بعد ذلك مدرسا للموسيقى في مدينة « قسطموني » وهي مركز ولاية قسطموني الواقعة شمالي تركيا قريبة من شاطىء البحر الاسود . وقد الف في مدينة قسطموني فرقة موسيقية نحاسية اعضاؤها من طلبة المدارس الثانوية ودور المعلمين والصنائع والميتم الاسلامي كانت هذه الفرقة تعزف في المناسبات الرسمية وغيرها . وكانت اقامته في مدينة قسطموني تسع سنوات تزوج خلالها من هناك .

وقد انجز في هذه الفترة كتابا في دراسة الموسيقى من تاليفه في خمسة الى سبعة ابواب .. ثم

عاد بعد ذلك الى مدينة حلب تاركا فى قسطموني اجمل الذكرى وخلف عددا من التلاميذ اصبحوا اساتذة من بعده .. وعندما عاد الشيخ علي الى اهله وذويه فى حلب كانت سوريا حينذاك تحت الانتداب الفرنسي . مكث ثلاث سنوات الف خلالها الكثير من الالحان الغنائية والآلية..مثل سماعي عجم عشيران وسماعي نهاوند ولونقا فرحفزا وغيرها . وقد بحث فى هذه الفترة من الالحان العربية القديمة التى اشتهرت بها سوريا وخاصة مدينة حلب فجمع من التراث العربي الشعبي القديم وغيره ودونه وسجله بالعلامات الموسيقية الحديثة كالموشحات والقدود والادوار وفاصل « اسق العطاش » ورقص السماح مع تدوين الحانها .

ثم انتسب عضوا عاملا الى نادي « الصنائع النفسية » وكان من اعضائه الاساتذة المرحوم شرف الدين الفاروقي والدكتور فؤاد رجائي والاستاذ سعد الدين القدسي مؤسس النادي وغيرهم .

وفى هذه الفترة سافر على راس فرقة موسيقية الى استانبول ، نال هناك نجاحا باهرا ثم عاد مصطحبا معه عددا ضخما من الكتب والمؤلفات الموسيقية فى شتى الفروع والاختصاصات فى اللغات التركية والعربية وغيرها ، وفى عام 1927 م حتى عام 1931م رحل الشيخ علي الى القطر المصري ، بعد تسلمه دعوة رسمية من النادي الموسيقي الشرقي بمصر الذي اسس فى القاهرة عام 1913 م . ذهب لتدريس الموسيقى هناك بعد ان اتفق اعضاء النادي المذكور الذي شمله الملك فؤاد الاول برعايته وعلى راسهم رئيس النادي مصطفى بك رضا ، على شراء كتاب مؤلف فى الموسيقى للشيخ علي وتدريسه مدة اربع سنوات بصورة مبدئية على ان يكون للنادي الحق فى نشر الطبعة الاولى من هذا الكتاب . وتعرف اثناء اقامته فى مصر على كثير من الشخصيات الفنية وغيرها . ودرس عليه فى هذه الاثناء بعض المشهورين الان كالاساتذة : محمد عبد الوهاب ، رياض السنباطي والسيدة ام كلثوم . وكان الشيخ علي يعود الى حلب خلال عطلة النادي صيف كل عام . وفى عام 1931 م اي قبل انعقاد مؤتمر الموسيقى العربية بسنة واحدة تعرف الشيخ علي فى مصر بمستشرق انجليزي يدعى البارون ديرلنجيه والذي دعاه هذا الاخير للعمل معه فى تونس لاتمام ابحاثه فى الموسيقى العربية بعد ان اعجب بمقدرته الفنية ثم استحصل له من طريق النادي الموسيقي الذي كان يعمل فيه على اذن ملكي صادر فى سراي راس التين بالاسكندرية فى 18 تشرين الاول عام 1931م. وذلك للسفر مع ديرلنجيه الى تونس للعمل معه على اتمام ابحاثه فى الموسيقى العربية .

وقد اشترك الشيخ علي فى عام 1932 م . فى مؤتمر الموسيقى العربية الذى عقد فى مدينة القاهرة بدعوة ملكية رسمية . هذا المؤتمر المشمول بالرعاية الملكية والذي اشترك فيه نخبة من اساتذة الشرق والغرب ودام انعقاده قرابة شهر . سافر الشيخ علي الى تونس ومكث هناك من عام 1931 م حتى عام 1939 اي حتى بداية الحرب العالمية الثانية . عندما سافر الى تونس عام 1931 م . كما ذكرت سابقا ومكث هناك عدة اشهر ، عاد الى القاهرة بعد ان طلب رسميا لمؤتمر الموسيقى العربية واثر انتهاء هذا المؤتمر سافر الى تونس صحبة البارون ديرلنجيه للعمل معه على اتمام ابحاثه ودراساته حول الموسيقى العربية بعد ان ترك القطر المصري نهائيا ، وبعد شهرين من وصوله الى تونس الخضراء ، تعاقد مع وزارة المعارف التونسية فى معهدي العطارين والرشيدية لتدريس الموسيقى . **فمكث فى تلك الديار زهاء ثمان سنوات كان يطوف خلالها مع دير لنجيه فى جميع البلاد التونسية وشمالي افريقيا للبحث عن الالحان الباقية من آثار الاندلسيين** الذين هاجروا قديما الى تونس والقيروان واكثرهم من سكان قرطبة وغرناطة واشبيلية وقد كلفت هذه الابحاث البارون ديرلنجيه مبالغ طائلة ولكن الشيخ علي وفق اثناء ذلك الى **جمع وتدوين اربعة عشر « نوبة اندلسية » وعشرين ملحقا لهذه النوبات وجملة موشحات اندلسية** . وقد استطاع الشيخ علي الاحتفاظ لنفسه بنسخة من هذه النوبات والموشحات الاندلسية لتكون فى حوزته .

وقد اسس الشيخ علي عند عودته الى مدينة حلب خلال العطل الصيفية مع رهط من اصدقائه من هواة الموسيقى حوالي عام 1934 م . ناديا موسيقيا لتدريس الموسيقى ونشرها باسم « النادي الموسيقي بحلب » وكان مقره وقتئذ فى باب النصر. ثم انتسب عضو شرف فى نادي « دوحة الميماس للموسيقى والتمثيل » فى مدينة حمص وكان فى تلك الاثناء عضوا عاملا فى حزب الكتلة الوطنية الذي كان يتزعمه الزعيم الراحل ابراهيم هنانو ضد الانتداب الفرنسي، فلحن الكثير من الاناشيد الحماسية والوطنية فى مناسبات عديدة . فاذا ما انقضت العطلة الصيفية عاد الشيخ علي الى مقر عمله فى تونس .. وقد عمل

ايضا فى الاذاعة التونسية وقام من تونس مع بعض الاصدقاء برحلات الى اوربا وحضر بعض الحفلات الموسيقية لدور الاوبرا والسنفوني اذ كان يعجب جدا بتلك الموسيقى التي وصلت الى ما وصلت اليه فى تطورها من الرقي والكمال .

وفى هذه الاثناء توفى البارون دريلنجيه ماسوفا عليه بالنظر لخدماته الجلى للموسيقى العربية وقبل مغادرة الشيخ علي الديار التونسية انعم عليه باي تونس آنذاك بوسام الافتخار من الدرجة الثالثة تقديرا له على خدماته للموسيقى العربية فى المملكة التونسية .

وفى ابتداء الحرب العالمية الثانية عام 1939م قفل الشيخ علي راجعا الى وطنه تاركا آثارا طيبة واصدقاء وتلاميذ اصبحوا **عمداء النهضة الموسيقية فى تونس** ومنهم الاستاذ صالح المهدي رئيس اللجنة القومية للموسيقى حاليا ، وعندما عاد الى حلب الف كتابا فى الموسيقى بعنوان « النظريات الحقيقية فى علم القراءة الموسيقية » .

وفى عام 1942 م . عين الشيخ علي عميدا ومدرسا فى المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق .

وفى عام 1944 م . سجل فى محطة الاذاعة فى القدس بفلسطين نخبة كبيرة من الموشحات القديمة ثم عمل مدرسا فى معهد الفنون الجميلة فى بغداد من عام 1945 حتى عام 1951 م . وقد سجل فى اذاعة بغداد ايضا عدة تسجيلات من الموشحات القديمة وبقي هناك زهاء ست سنوات ، وفى عام 1946 م . كان الشيخ علي الدعامة الكبرى فى تاسيس المعهد الموسيقي فى حلب ولدى عودته الاخيرة الى الوطن عام 1951 م . عاد الى عمله السابق فى المعهد الموسيقي ، هذا المعهد الذي اسسه المرحوم الدكتور فؤاد رجائي ثم عين الشيخ علي الى جانب عمله فى المعهد مستشارا فنيا فى دار الاذاعة السورية فى حلب الى ان وافته المنية فى مدينة حلب يوم الخميس المصادف فى 12 ربيع الاول 1371 هـ . الموافق فى 26 تشرين الثاني عام 1952م عن عمر ناهز الثامنة والستين وقد شيعت جنازته فى حفل رهيب مشى فيها بعض الهيئات الحكومية وقد جاء خصيصا من اساتذة المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق للاشتراك بتشييع جنازته الى جانب اساتذة وطلاب المعهد الموسيقي فى حلب حشد كبير من الجمهور ، ودفن فى مقبرة آقيول بحلب .

واورد هنا مقتطفات من قصيدة شعرية للشاعر التونسي محمود بورقيبة يمتدح بها ضيف تونس حينذاك المرحوم الاستاذ علي الدرويش عنوانها :

ـ رابطة الفن بين تونس وشقيقتها سوريا ـ

يقول الشاعر محمود بورقيبة :

لعمدة الفن اجلالي واعظامي
الى «العلي »الى ذي المركز السامي

الى الذي حل بالخضراء فاغترفت
من فنه علم اوزان وانغام

الى الذي كان يلقي من شبيبتها
دوما عواطف تقدير واكرام

الى ان قال :

« علي » بلغ لسوريا الشقيقة من
خضرائنا كل تبجيل واعظام

وعد لتونس يا استاذ عودة از
هار الربيع لها فى عذب ابتسام

وانشر باجوائها فنا رفعت له
راسا كريما فاضحى شامخ الهام

الى أن قال :

سر عمدة الفن نحو الشام وابق لنا
الذكرى العزيزة ذكرى خير ايام

واحمل الى الشام من خضرائنا ارجا
عربون ود عميق بالحشا نامي

والشرق فى صدره لا زال يجمعنا
والفن قد ربط الخضراء بالشام

المعلمة العربية

- التحقيق العلمي عند الدكتور مصطفى جواد
  للاستاذ محمد ابراهيم الكتاني
- الفكر العلمي العربي في شخص العباس بن فرناس
  للاستاذ سعيد الديوه جي
- اعلام اللغة : احمد فارس الشدياق
  للاستاذ محمد جميل بيهم
- تاريخ جامعة الدول العربية
  للشيخ طه الولـــي
- عروبة فلسطـــين
  للدكتور اسعد حومـــد
- دراســة حول نهاية الادب للنويري
  للاستاذ عبد الحليم الندوي

التحقيق العلمي

عند الدكتور مصطفى جواد

محمد ابراهيم الكتاني ، الأستاذ في جامعتي القرويين
ومحمد الخامس « المغرب الأقصى »

اوفد المكتب الدائم الاستاذ محمد ابراهيم الكتاني ليمثله في حفل تابين المرحوم الدكتور مصطفى جواد ببغداد وقد القى الاستاذ باسم المكتب الدائم المحاضرة الآتيـــــة :

ان الناظر في كثير من آثار الفقيد الدكتور مصطفى جواد رحمه الله ، ـــ ولو كان معجلا ، يتجلى لـــه بوضوح متانة ثقافته واتساعها وعمقها ، واطلاعـــه الواسع ، واستقلاله الفكري ، ومعرفته الكبيرة بالكتب

فهو ذو ثقافة لغوية متينة . شديد الحرص على سلامة التعبير العربي من المسخ والانحراف عن النهج السليم . وهو في نفس الوقت **شديد العناية بمسايـرة اللغة العربية لركب التطور ، ومواجهة المشاكل التي تعترض سبيلها** ، وهو اذا كان عارفا بالتراث معتزا به قادرا له حق قدره ، فانه في نفس الوقت يفرق عن معرفة واسعة بين ما هو من جوهر العربية وذاتيتها القائمة على اساس المقدسات التي لا تحتمل تطورا ولا تبديلا . وما هو من اجتهادات المجتهدين التي يحـــق لغيرهم ان يناقشهم فيها وان يدلي من جهته بتجربته الخاصة ، حسبما جرت عادة الباحثين في عصـــور ازدهار الفكر العربي . وهو بهذا **التفكير الاصيل المتحرر** في نفس الوقت ، **يواجه مشكلة المصطلحات** ومشكلات نحو العربية وصرفها : من الجمود وعدم الابـداع ، ويعنى بالجمود اتباع قدماء النحويين في سرد القواعد من غير عرضها على كلام العرب وشعرهم الخالي من الضرورة .

ويذكر من اسباب اختلال النحو اختلالا فاحشا فصله عما يسمى (علم المعاني) الذي كان من النحو ، ومنها الاخذ من نحو البصريين دون الكوفيين ؛ مع ان مذهب البصريين مناف لطبيعة اللغات .

وفي (الصرف) يبين بطلان فكرة (المطاوعة) و (المصدر الصناعي) و (عدم النسبة للجمع) .

وفي مشكلة معجمات العربية ومفرداتها يذكر ان **اللغة العربية محتاجة الى معجمات تستوعب الفصيح وغير الفصيح ، والقديم والمولد ، والعربي والمعرب** ، مما ورد في كتب المسلمين الى زمن انقطاع التاليـف المتقن .

ويذكر ان **الكلمة العربية لها قيمتان دائما ، قيمة معجمية لا حياة فيها ، وقيمة استعمالية حيوية** ، وانك اذا تصفحت هذه المعجمات اللغوية المتداولة قلمـــا تجد الشواهد القرآنية لاستعمال الكلم مع انها اقـــدم الشواهد تسجيلا واصحها .

فالمعجمات ينبغي فيها ان تاخذ وجوه استعمـــال الكلمات في القرآن الكريم ، وتجب **دراسة القـــرآن دراسة لغوية ودراسة نحوية عودا على بدء** . ففي ذلك نعش للعربية من كبوتها وتقوية وتوسيع .

ويقرر ان **من اعظم ميسرات العربية علـــى طالبيها والكتاب الناشئين وضع (قواعد عامـــة) تغنيهم في كثير من الاحيان عن مراجعة المعجمـــات** ، وقدم 16 قاعدة امثلة لما يقترحه من القواعد .

وكل هذا فى مقدمة محاضراته عن (**المباحث اللغوية فى العراق**) وقد اشار فى اواخرها الى مؤلفاته فى هذه الموضوعات : (**المعجم المستدرك**) الذي نشر منه شيئا فى (مجلة المجمع العلمي العراقي تحت عنوان (**مبحث فى سلامة اللغة**) و (**الصبيح النذير ، للمصباح المنير**) و (**قل ولا تقل**) و (**فقه اللغة العربية**) على حسب مباحث العلم الحديث فى المباحث اللغوية ، وقال : ان فيه مباحث من قبيل الابداع ، لا التحسين والاتباع ، (وكتاب القلب والابدال) قال : وتغلب عليه الجدة والاستنباط . و (نهج السداد ، فى كلام النقاد) و (معجم الجمل العربية ــ الفرنسية) وحقق ونشر بالاشتراك (الجامع الكبير) لابن الاثير فى البلاغة . وقد كان يعرف الى جانب العربية والفرنسية الفارسية والالمانية.

وهو كذلك **ذو اطلاع واسع فى التاريخ وفروعه** المختلفة من تاريخ الحوادث والتراجم والحركة الفكرية ووصف البلدان واقوال الرحالين والادباء فى ذلك .

وقد نشر فى هذه الموضوعات كثيرا من المؤلفات والبحوث والدراسات ، وحقق كثيرا من المخطوطات

مثل دراسته عن (ابن الفوطي / وعن (بقية الادارسة بمصر) ، وعن (أصفهان ، معقل الادب العربي فى ايران) و (معجم مواضع واسط واعيان واسطيون من حملة العلم والاثر) و (الثقافة العقلية والحال الاجتماعية فى عصر ابن سينا) و (الفتوة واطوارها واثرها فى توحيد العرب والمسلمين) و (جاوان القبيلة الكردية المنسية ومشاهير الجاوانيين) و (علم ابن النديم باليهودية والنصرانية) وكلها نشرت بمجلة المجمع العلمي العراقي ، و (سيدات البلاط العباسي)

كما نشر بالاشتراك (دليل خارطة بغداد) وحقق وعلق ونشر (الجزء التاسع من الجامع المختصر ، و (نساء الخلفاء) كلاهما لابن الساعي . و (تكملة اكمال الاكمال) لابن الصابوني ، و (المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي) والقسم الرابع من (تلخيص مجمع الآداب لابن الفوطى) . وهذه الآثار ــ وغيرها ــ من آثار الفقيد الى جانب كونها تدل على سعة ثقافية وتنوعها وعمقها واصالتها ، تتسم فى الغالب بطابع التحقيق العلمي ، من جهة .

وتدل من جهة اخرى على ما كان يتصف به الفقيد من الكثير من اخلاق العلماء، من **التثبت والتحري والدقة فى التعبير** ، وعدم القاء الكلام على عواهنه ، **والعفة فى المنطق** ، والتواضع وعدم الدعوى .

وكما يتجلى فيها بوضوح **شغفه الكبير بالكتب** ومعرفته الواسعة بمطبوعها ومخطوطها ، والصحيح والسقيم من طبعاتها ، وما هو منسوب خطأ لغير مؤلفه ، ومن هو مؤلف بعض من جهل مؤلفه منها وما هي قيمتها ، وما هو تام منها وما هو ناقص، والموجود منها وامكنة وجوده ، وما هو مجهول المكان ، فان ذلك يتجلى ايضا فيما نشره عن الكتب من دراسات ومقالات لا تعد ، مما يؤكد صحة ما قاله الفقيد رحمه الله عن الكتب والمخطوطات فى الحديث الذي نشرته مجلة (اقلام) فى الجزء الاول من السنة السادسة بقلم الاستاذ سالم الآلوسي : (انها عماد حياته وسر بقائه) .

وقديما قيل : (العلم معرفة المظان) فمن لم يعرف المراجع التي تناولت الموضوعات المختلفة وقيمة هذه المراجع من الناحية العلمية ، لم يستطع معرفة ما يحتاج معرفته او لم يكن على ثقة من صحة ما يجده فيها .

ومن امثلة تحقيق الفقيد العلمي فى دراسته للكتب، بحثه القيم عن (**الضائع من معجم الادباء**) لياقوت الرومي الحموي ، فقد بين فيه وقوع النقصان فيه ، وفى مواضع لم يتنبه لها ناشره مرجليوث ، وفقدان القسم الثاني من الجزء الثالث والشك فى كون الجزء الرابع اصلا او مختصرا فقط ، وان السابع مختصر فقط ثم شك فى ان يكون كل من الجزاين الرابع والسابع منتزعين من (معجم الشعراء) لياقوت الحموي ، ان لم يكونا جزاين منه ، ثم عقب بذكر تراجم تعتبر ضائعة من معجم الادباء عثر عليها من مطالعاته وتصفحاته ، وقد وقفت منها على 46 ترجمة فى العددين السادس والسابع من مجلة (المجمع العلمي العراقي) وقال : له صلة ، فما ادرى انشر شيئا بعد ذلك أولا ؟

ويعتبر ميدان تحقيق المخطوطات من ابرز ميادين التحقيق العلمي .

وغير خاف انه كان للعرب والمسلمين فى عصور ازدهار الحضارة العربية والثقافية الاسلامية تقاليد رائعة فى ميدان تحقيق المخطوطات ، فقد كان المؤلف يكتب تاليفه ويصححه ، ثم يمليه على الطالب وهو يكتب ثم يقرأ الطالب على المؤلف ما كتبه والمؤلف يمسك نسخته ، فيصحح الطالب بين يدي المؤلف ما

عساه يكون قد صدر منه اثناء الكتابة من خطا ، وبعد فراغ الطالب من مقابلة جميع الكتاب مع المؤلف يكتب له المؤلف بخط يده وتوقيعه على نسخته شهادة بان الطالب قد قرأ عليه هذا الكتاب وقابله معه حتى اصبحت نسخته هذه طبق اصل المؤلف ، ويضيف المؤلف لذلك ما مؤداه اعترافه بان هذا الكتاب من تاليفه وانه موافق على صحة هذه النسخة باذنه لهذا الطالب (واجازته) له ان يروي عنه هذا الكتاب ؛ وهكذا يفعل هذا الطالب عندما يصبح استاذا مع طلبته ؛ فتتفرع عن نسخة المؤلف الأصلية فروع طبق الأصل بقدر من قراوها على المؤلف وقابلوها معه واجاز لهم روايتها عنه ؛ ثم تتفرع عن كل نسخة من هذه النسخ المطابقة لأصل المؤلف نسخ عديدة طبق الفروع المنسوخة منها ، وهكذا دواليك .

وقد عرف تاريخ الثقافة الاسلامية نسخا اصلية مصححة ومقابلة استمرت الاجيال المتعاقبة في مختلف الاقطار تتناقلها وتقابل عليها الفروع المستنسخة منها ، وتتصل روايتها عن مؤلفها او ناسخها بالسند المتصل جيلا بعد جيل ، وكان اهل العلم يتنافسون ويتغالون في الحصول على هذه النسخ ويعرفون لها قيمتها . على انه لا نكران انه كان الى جانب هؤلاء المتثبتين المتحرين المتقنين طائفة اخرى من النساخ الجاهلين الذين لا ذمة لهم ، مما استحقوا معه ان يسموا بالماسخين !

وظهرت المطبعة العربية أول مرة في اوروبا وقام اعاجم غير مسلمين بطبع بعض المخطوطات العربية لاغراض خاصة . وعلى نطاق محدود ، وكانت عندهم امكانيات مادية كافية ، ولم يكن بعضهم يخلو من معرفة وروح علمية .

وعندما انتقلت المطبعة العربية الى البلاد ذات الثقافة العربية قامت بعض المؤسسات الرسمية باسناد مهمة تصحيح المطبوعات العربية الى طائفة من اهل العلم ، فنشرت مخطوطات مهمة لا تنقصها الصحة في كثير من الاحيان ، ولكن تحول نشر المخطوطات الى عملية تجارية كان نكبة عظيمة للكتاب العربي مسخته مسخا شنيعا ، مما دفع بعض المخلصين للتراث العربي في بعض البلاد العربية الى القيام بحركات لانقاذ الكتاب العربي بنشره نشرا علميا .

ولكن هؤلاء المحققين لم يسلكوا منهجا واحدا في التحقيق ، وزاد الأمر تعقدا تسرب جماعة من انصاف المتعلمين الى الميدان — وفيهم من يحملون شهادات عليا من جامعات أجنبية — وقيامهم بأعمال مشوهة باسم التحقيق العلمي ، ممن دعا الى وضع رسائل عن المنهج العلمي لتحقيق المخطوطات ، فيما الاصيل وفيما المنقول .

وقد كان الفقيد — رحمه الله — من ابرز العاملين في ميدان **التحقيق العلمي للمخطوطات** ، ولكننا لا نعرف له رسالة خاصة أو مقالا عن المنهج العلمي لهذا التحقيق (1) وبالرجوع الى بعض اعماله في هذا الميدان نستطيع استخلاص بعض آرائه في الموضوع .

وسنتخذ عمله في رسالة (نساء الخلفاء) لابن الساعي التي نشرتها (دار المعارف) بمصر بدون تاريخ ضمن سلسلة (ذخائر العرب) رقم 27 مرجعا في هذا البحث .

1) اسم الكتاب

سمى المؤلف كتابه (جهات الخلفاء من الحرائر والاماء) وسماه صاحب (كشف الظنون) (نساء الخلفاء) فجمع المحقق بين الاسمين بتقديم الثاني لوضوح معناه ، وتاخير الاول نظرا لعدم استمرار استعمال كلمة (جهة) فيما كانت تستعمل فيه .

2) مؤلف الكتاب

لم يكتب اسم المؤلف على النسخة الوحيدة المعروفة من الكتاب .

وقد نسبه الاستاذ مكرمين خليل مدرس التاريخ بجامعة استانبول الى كمال الدين عبد الرزاق المعروف بابن الفوطي المؤرخ ، فتصدى المحقق لبيان بطلان هذه النسبة التي لا دليل عليها لا في الكتاب ولا خارجه ، وقدم أربعة أدلة على انه لابن الساعي لا لابن الفوطي استغرقت خمس صفحات .

ثم بين خطأ اهمال كتابة اسم المؤلف على الكتاب ، وذكر ان المؤلف المعروف في زمن قد تذهب شهرته او كثير منها في عصر آخر واورد امثلة على ذلك

3) التعريف بالمؤلف وعصره

لقد كان الترتيب الطبيعي يقتضي تاخير التعريف بالمؤلف وعصره الى ما بعد اثبات انه ابن الساعي لا

(1) علمت بعد القاء هذا البحث في المهرجان التابيني ان له بحثا مخطوطا في الموضوع .

ابن الفوطي ولا غيره ، ولكن المحقق راى ان الادلة التي قامت له على انه ابن الساعي تنفي كل احتمال ممكن في انه لغيره ، لذلك تجاهل هذا الاحتمال أولا وتصدى للتعريف بعصر المؤلف والمؤلف فاورد ما قاله ثمانية من الرحاليين والمؤرخين عن الحالة السياسية في عصر المؤلف . واورد قائمة باسماء بعض الشعراء والعلماء ، بمعنى العلم الصحيح ، والمؤرخين .

وفي كلامه على سيرة المؤلف ، ذكر مولده ، واشار الى عدم وجود ذكر لوالده في التاريخ ، وبين معنى الساعي وسماع المؤلف للحديث ، ودراسته الادب والتاريخ ولبسه خرقة التصوف وشيوخه .

ثم ذكر ان بعض من ذكروا المؤلف التبس عليهم اسمه ابن الساعي بابن الساعاتي ، وبين غلطهم .

وان ابن الساعي عرف بالخازن ، وبين معناه وذكر اسماء بعض من كانوا يختلفون الى دور الكتب في هذا العصر ، وان ابن الساعي الف اكثر كتبه في ايام الدولة العباسية ، وان العباسيين كانوا يجيزونه عليها ، واضاف : وهذا يطعن في حياده عند اهل التحقيق والتدقيق !

ثم ذكر بعض من استمد من تآليفه ، وقيمته كمؤرخ وضعف طعن من طعن فيه ، ثم اورد قائمة باسماء مؤلفاته ومن ذكر كل واحد منها .

ويقع هذا التصدير في 40 صفحة بالحرف الصغير بينما تقع الرسالة بتعاليقها في 92 صفحة اغلبها بالحرف الكبير .

هذا — وقد سبق للمحقق ان حقق ونشر (الجزء التاسع مع المختصر ، في فنون التواريخ وفنون السير) لابن الساعي . وصدره بمقدمة ترجم فيها المؤلف ، وذكر نظم الدولة العباسية في اواخر عهدها، والخلافة على عهد الناصر لدين الله فيعتبر عمله في تصدير (نساء الخلفاء) تتميما لعمله السابق .

4) مصدر النسخة وصفتها

ذكر المحقق — في التصدير — كيف علم بوجود النسخة ومكانها ، وكيف تم تصويرها ثم اخراجها على الورق وقيامه بنسخها ، ووصف خط النسخة وذكر تاريخها .

5) اصلاح اخطاء النسخة

ذكر المحقق انه صحح ما في النسخة من خطأ النسخ ، فالناسخ نقل في عدة مواضع ما لم يفهمه من الكتاب ونسخ ما هو غير واضح ، الى اخطاء املائية يرتكبها .

وقد حدث خلل في النسخة : وهو ان قسما من اخبار احدى المترجمات ادغم في اخبار ترجمة اخرى، فاستوجب ذلك تنبيها واصلاح الخلل ، ولم ينبه على ذلك احد قبل المحقق .

ونشير الى ان من محققي المخطوطات من يحافظون على ما في النسخة كما هو صوابا وخطا ، ثم يعلقون في الحاشية ببيان الاخطاء ووجه الصواب فيها ، ومنهم من يصلح الاخطاء ، في الاصل ويذكر في الحاشية ما كانت عليه في المخطوط ، ووجه اصلاحها .

وقد سلك الفقيد هذا المسلك الاخير في (نساء الخلفاء) اربعا وعشرين مرة ، منها ما هو خطأ نحوي ، ومنها ما هو خطأ في الاعلام ، ومنها ما اصلحه اعتمادا على المصادر ، ومنها ما اصلحه لعدم مناسبته المقام ، ومن امثلته :

ومطربها (بمعزفه) ... يؤوب الى نوائحها . مكان (بمعرفة) قال : لا محل للمعرفة فيه ، وانما العبرة في صيرورة المطرب بمعزفه الى النوائح !

ولكن المحقق ابقى اخطاء اخرى على حالها ونبه على خطئها مثل (الرزازين) التي هي تصحيف الزرادين و (قصر الخلافة) والصواب قصر (الرصافة) (وظفرسي) الداعي العلوي ؛ وهو قريب من ظفر ابن الداعي العلوي .

وتارة يبقي الخطا على حاله ويضيف كلمة (كذا) اليه . هذا كله فيما اتضح فيه وجه الخطا ؛ اما ما كان محتملا فانه يبقيه على حاله ويذكر الاحتمال في التعليق؛ فقد وردت في المخطوط — مثلا — كلمة (فتلبتها) ويجوز ان تكون (فقبلتها) كانها فعلت ذلك احتراما لمهديها .

6) هل الكتاب تام أم ناقص ؟

استظهر المؤلف في تعليق (ص 53) انه ناقص .

7) هل التزم المؤلف شرطه ؟

ختم المحقق تصديره بان المؤلف لم يلتزم شرط

كتابه بتضمينه اياه نساء الخلفاء ، فقد اضاف اليه من نساء السلاطين والامراء .

8) شكل الكلمات

ويولي الفقيد رحمه الله عناية خاصة للكلمات التي تحتمل الخطأ عند النطق بها فيشكلها بالحركات مثل : العكبري ، وبغا والدبيثي ، والسهروردي ، والجنابذي ، وخمارويه ، وبنفشا ، والصلح .

وضبط شمة بفتح الشين والميم ، فرارا من قول من قال : ان تسكين الميم من كلام المولدين — وان لم ينبه على ذلك — .

واحيانا يناقش المصادر فى ضبطها لبعض الكلمات .

فعربب ضبطها الذهبي بالضم . ولكن ورد فى الجزء الثامن عشر من الأغاني شعر يدل على ان العين مفتوحة والراء مكسورة .

وبنان بضم الباء وضبطها مصححوا كتاب الاغاني بدار الكتب المصرية بالفتح .

9) تفسير الكلمات المحتاجة الى تفسير

سمى المؤلف كتابه (جهات الخلفاء) — جمع جهة وهي كناية عن زوجة الخليفة او حظيته ، او زوجة السلطان او حظيته ، استعملت كذلك فى العصر السلجوقي وما بعده، واريد بها احيانا السيدة المتزوجة مطلقا . ووردت كلمة (البدنة) فى كلام المؤلف واحمد ابن ابي طاهر وابي جعفر الطبري ، بدون تفسير ففسرها واستعمل المؤلف كلمة (الغابرين) بمعنى الباقين وهذا هو الوجه الفصيح فى استعمال الغابر وهو الوارد فى القرآن الكريم ، وأما استعمال الغابر بمعنى الماضي وكونه من الاضداد كما عند ابن الانباري فناشىء — من رأى المحقق — من تصحيف العابر بالعين المهملة .

10) التعريف بالامكنة الوارد ذكرها فى النص

اذا ورد ذكر مكان ، وكل الامكنة الوارد ذكرها من بغداد ، فان المعلق يعين المحل الذي كانت توجد فيه .

فتصور دار الخلافة ومرافقها كانت فى الشارع المعروف اليوم بشارع المستنصر بالله فى بغداد الشرقية .

ومحلة نهر عيسى تسمى اليوم محلة السوق الجديد من الجانب الغربي من بغداد وما قاله ياقوت عن نهر عيسى مأخوذ من تاريخ الخطيب البغدادي ، واكثر ما فى تاريخ الخطيب مأخوذ من كتاب انهار العراق لابن سرافيون .

والظاهر ان سوق الخبازين كان مجاورا لدرب الخبازين المعروف اليوم بدرب العاقولية بشرق بغداد ويعرف بسوق الحيدر خانة .

ومن المعروف ان المحقق الف فى هذا الموضوع بالاشتراك — كما سبق القول — (دليل خارطة بغداد) .

11) التعريف بالاشخاص

يعلق المحقق — غالبا — على اسم المترجمة فى الكتاب بذكر مراجع ترجمتها ، وبعض المراجع التي لها فيها ذكر ، مطبوعة ومخطوطة ، مع ذكر الجزء والصفحة ومكان الطبع وتاريخه — غالبا فى كل ذلك — ويذكر فى المخطوط — زيادة على الجزء والصفحة — المكتبة التي يوجد بها ورقمه ، والمكتبة التي توجد بها صورة عنه ان كانت هي التي رجع اليها ، ويكرر ذلك كلما ورد ذكر الكتاب .

وقال عن واحدة انه لم يجد لها ذكرا فى كتب التاريخ والادب التي وصلت اليها يده سوى كتاب واحد

وقال عن اخرى انه لم يقف على ذكر لها فى كتاب آخر .

ولكنه لم يشر الى مراجع 16 ترجمة ، فالظاهر انه لم يقف على ذكرهن من غير ان ينبه على ذلك .

12) الرجوع الى المراجع التي احال عليها المؤلف

من ابسط قواعد التحقيق العلمي ان يتأكد المحقق مما ينقله المؤلف من مرجع من المراجع . فيعرف هل هو موجود فيه أولا ، واذا كان موجودا فما هو مقدار مطابقته لما نقله عنه المؤلف .

وقد نبه المحقق على عدم وجود بعض ما ذكره المؤلف فى المصدر الذي رجع اليه .

فقد نقل المؤلف عن الجهشياري فلم يجد المعلق الخبر في المطبوع من كتاب (الوزراء والكتـــاب) لان المطبوع ناقص كما هو معلوم .

ونقل المؤلف عن ابن الجوزي فلم يجد المؤلـــف الخبر في (المنتظم) لانه انتهى قبل ذلك التاريـــخ ، فالظاهر ان هذا الخبر من (درة الاكليل) .

ونقل المؤلف عن ابي بكر الصولي فاستظهـــر المعلق ان المؤلف اخذ هذا القول مما ذكره ابو الفرج في اخبار ابي العتاهية .

واورد المؤلف كلاما مضطربا فاصلحه المعلق من (مروج الذهب) . والذي جرت به عـــادة محققـــي المخطوطات وعليه درج النقيد في كثير من تحقيقاته ، (تلخيص مجمع الآداب) مثلا ، بيان جـــزء المصـــدر والصفحة الذين يوجد فيهما ما نقله المؤلف .

ولكنه اهمل هذا في تحقيقه (لنساء الخلفـــاء) فقد ذكر المؤلف في ترجمة (عنان) ان لها اخبارا مدونة ذكرها ابو الفرج الاصفهاني في (كتاب الاغاني) وذكر المعلق في مراجع ترجمتها الاجزاء : العاشر والعشرين والثالث والعشرين المخطوط . ولكنه لم يذكـــر في اي جزء من هذه الاجزاء يوجد انه ما نقله المؤلف .

وكذلك في ترجمة عريب ، وبدعة الكبيرة .

وكذلك فيما نقله عن (كتاب بغداد) لاحمد بن ابي طاهر ، ونقل عن كتاب (الورقة) لابن الجراح فذكر المعلق ان المطبوع منه ناقص ، ولكنه لم يشر الى ما اذا كان ما نقله المؤلف موجودا في المطبوع اولا . الى غير ذلك .

13) التعريف بالمراجع

وقد يضيف المحقق التعريف بالمرجع الذي نقل منه المؤلف فقد نقل عن تاريخ ثابت بن سنان بن قرة ، فنقل عن القفطي التعريف بهذا التاريخ ، وبيان المدة التي ارخها واهميته .

14) ايضاح المبهمات

فالحافظ ابو عبد الله البغدادي هو محب الدين محمد ابن النجار وابو القاسم الارجي هو يحيـــى بن اسعد بن بوش ، وابو احمد الامين هو عبد الوهاب ابن سكينة ، وابو محمد الجنابذي هو عبد العزيز بن محمد بن الأخضر ، ومحمد بن داود هو ابن الجراح ، والمشهور بابي عبد الله الحنبلي في عصر ابن النجار هو ابو عبد الله محمد بن مكي بن ابي الرجاء الملقب تقي الدين .

15) التنبيه على أوهام المراجع

ويولي النقيد رحمه الله عناية بالغة للاوهـــام الواقعة في المراجع فيهتم بالتنبيه عليها وبيان الصواب فيها ، فقد نسب ابن خلكان للسمعاني انه ضبط كلمة جمير بالضم وهو غلط ، مع ان الوارد في (الانســاب) هو الفتح ، وكذلك ما في مختصره (اللباب) .

وبنان بضم الباء، وضبطها محققوا كتاب الاغاني بدار الكتب المصرية بفتحها .

وظن ابن تغرى بردي ان ابن الساعي كان حنفيا مع انه شافعي ، وقد نبه المحقق على ما يمكـــن ان يكون السبب في ظنه هذا .

وذكر علي بن الحسن الخزرجي ابن الساعـــي فسماه ابن الخازن والصواب الخازن .

وعن مؤلفات ابن الساعي (الاحاديث الثمانية). وقد ورد في بعض المصادر (اليمانية) من غلط النسخ او الطبع .

ولابن الساعي كتابان في نساء الخلفاء ، وقـــد حسبهما الذهبي وبعده الصفدي وتابعه ابن تغـــرى بردي كتابا واحدا .

وسمى المؤلف احد شيوخـــه عبد العزيـــز بن المبارك ، وجاء في (تذكرة الحفاظ) للذهبي : عبـــد العزيز بن مسعود ، وهو خطا ، ولم يصحح هذا الخطا مصححوا « معجم البلدن » (طبعة دار صادر ببيروت) .

وذكر ياقوت باب المحول من الجانب الشرقي من بغداد والصواب الغربي .

وتردد صاحب مختصر بغداد في نسبـــة خبـــر للمعتضد او المعتمد والصحيح انه المعتمد .

ولقب ابن النجار في (النجوم الزاهرة) بمجـــد الدين بدلا من محب الدين وهو من خطا النسخ وعدم التصحيح في الطبع !

وذكر ابن جبير دار ابي الفرج ابن الجوزي ، مع انها مدرسة بنفشا وكان يسكن فيها لأنه كان مدرسها يومئذ .

وكان انشاء تربة عون ومعين ايام الناصر . واخطأ الصلاح الصفدي فنسب عمارات الناصر ومنها تربة عون ومعين الى ابيه محمد الظاهر .

ووقع في ترجمة ثابت بن سنان في تاريخ الحكماء للقفطي اضطراب في تاريخ وفاته : حيث ذكر مرة انها كانت سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ، ومرة سنة خمس وستين وثلاثمائة . وورد اسم (شاهفرند) في تاريخ الطبري وفي الكامل شاه آفريد ، وفي بعض نسخ (مروج الذهب) للمسعودي (سارية) وهو تصحيف .

ورجح ابن خلكان ما ورد عند العماد في (الخريدة) على ما ورد عند السمعاني لظنه ان بينهما تعارضا ، فبين المحقق انه لا تعارض بينهما .

وورد ذكر ابي بكر ابن العلاف ، فذكر المعلق مصادر ترجمته وقال : وهو صاحب الابيات المشهورة في رثاء المبرد ، وليست هي لثعلب كما ذكر الكمال بن الانباري في (نزهة الالباء) .

16) التعريف بمؤلفي بعض المخطوطات الغفل

نقل المحقق من (ذيل تاريخ بغداد) لابن الدبيثي، نسخة كمبردج ، وزاد : ولم يعلم المفهرس انه تاريخ ابن الدبيثي وقد حققنا ذلك وتأكد لنا .

17) التنبيه على الخطأ في نسبة بعض المؤلفات لغير مؤلفيها

تقدم انه بين ان (نساء الخلفاء) لابن الساعي لا لابن الدبيثي ، ومن مؤلفات ابن الساعي (اخبار الخلفاء) ، وأما هذا المطبوع المسمى (مختصر اخبار الخلفاء) فهو مدسوس عليه نحله اياه بعض المزورين الذين اعتادوا التزوير في كل امورهم وشؤونهم !

و (المحاسن والأضداد) منسوب خطأ للجاحظ.

وكتاب (الذخائر والتحف) مجهول المؤلف ، وقد نسب الى القاضي الرشيد ابن الزبير ، وكتب تحته (القرن الخامس الهجري) . قال المحقق : وكل ذلك خطأ على خطأ !

وذكر محقق الكتاب الدكتور الفاضل محمد حميد الله انه مع سعيه لم يعثر على ترجمة القاضي الرشيد ، مع انه مترجم بتفصيل في مصادر اوردها المحقق . وهو من اهل القرن السادس لا الخامس . ثم قال : ونسبة الكتاب المذكور اليه — وهو من تاليف القرن الخامس — خطأ مبين يجب اصلاحه ، ولعله من مؤلفات ابن بابشاد المشهور .

و (طبقات الشعراء) منسوب لابن المعتز .

18) التنبيه على نقصان بعض الكتب

الظاهر ان ترجمة عبيد الله بن احمد بن ابي طاهر فقدت فيما فقد من (معجم الادباء) .

والمطبوع من (كتاب الوزراء والكتاب)للجهشياري ناقص كما هو معلوم ، وما اكثر المفقود منه !

والمطبوع من (كتاب الورقة) (بعناية دار المعارف !) وتحقيق الاستاذين الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج خال من الترجمة التي نقلها ابن الساعي فالنسخة ناقصة .

وقد ورد في (اخبار النساء) خبر منقول عن (الورقة) لا يوجد في المطبوع .

وفيما نقل عن احمد بن ابي طاهر لاذكر له في المطبوع منه المعروف (باخبار بغداد) .

ونقل عن تاريخ هلال بن محسن الكاتب لاذكر له في المطبوع منه الملحق (بتاريخ الوزراء) لهلال المذكور ، فهو ناقص .

19) التنبيه على خطأ تسمية بعض المؤلفات

كان الفقيد قد صحح قديما مخطوطا فغفلا من التسمية وتسمية المؤلف ، سماه في المطبوع (الحوادث الجامعة) لكمال الدين ابن الفوطي ، وقد صدره ناشره بمقدمتين اولاهما بقلم صديقنا الاديب الكبير محمد رضا الشبيبي رحمه الله ، وقد جاء فيها : (ومن رأيي — وقد تصفحت الكتاب — انه كتاب (الحوادث والتاريخ) لمؤلفه ابن الفوطي ، وزاد : وان لدينا من الادلة ما يكفي في نسبة هذا الكتاب الغفل الى العلامة المذكور .

وثانية المقدمتين بقلم الفقيد ، مصحح الكتاب والمعلق عليه ، وقد اورد اسم (الحوادث الجامعة) بدون نقاش .

وذكر اول من نسبه لمؤلفه فى عصرنا .

ولكنه فى تعاليقه على (نساء الخلفاء) يقول : الكتاب الذي سميناه (الحوادث الجامعة) استرجاحا نظهر انه غيره !

20) التنبيه على قيمة بعض الطبعات

ينقل المحقق عن (وفيات الاعيان) طبعة بلاد العجم ، ثم قال عنها انها اصح من الطبعات الاخرى .

21) اضافة ملحق للكتاب

اضاف المحقق الى (نساء الخلفاء) ملحقا اورد فيه اخبارا متعلقة ببعض المترجمات فى الكتاب وردت فى(الذخائر والتحف) السابق الذكر .

22) الفهارس وقائمة المراجع

الفهارس مفاتيح الكتب ، فالكتاب الذي لا فهارس له تكون الاستفادة منه صعبة وفى نطاق محدود . ولهذا كان وضع الفهارس من اهم ما يقوم عليه المنهج العلمي لتحقيق المخطوطات .

وقد اختلف موقف الفقيد من هذه القاعدة فهو تارة يضع الفهارس اللازمة والمتنوعة ، مثل ما فعل فى جزء (الجامع المختصر) .

حيث اضاف له خمسة فهارس احدها للكلمات المفسرة وآخر عمراني للاخلاق والعادات والشؤون الاجتماعية ، وفى (تكملة اكمال الاكمال) لابن الصابوني حيث اضاف له اربعة فهارس ، ثالثها للفوائد الشاردة وفى (الجامع الكبير) لابن الاثير ثمانية فهارس .

وفى (دليل خارطة بغداد) فهرسان .

وتارة اخرى يكتفي بفهرس مختصر مثلما فعل فيما سماه (الحوادث الجامعة) .

ومثل جزاي (المختصر المحتاج اليه من تاريخ ابن الدبيثي) حيث ذكر فى الاول مراجع التصحيح والايضاح والتراجم ، وفى الاخير ثبتا مختصرا للمترجمين فى الجزء ، ومثل القسم الثالث من الجزء الرابع من (تلخيص مجمع الآداب) لابن الفوطي حيث اقتصر على فهرس ابواب هذا القسم الثالث من الكتاب ، ووعد ان يثبت فى القسم الرابع والاخير منه الفهارس العامة التفصيلية للجزء الرابع كله ، ولم اقف الا على القسم الثالث وحده .

ولكنه تارة ثالثة لا يضع فهرسا بالمرة مثل سيدات البلاط العباسية و (نساء الخلفاء) .

واذا كان مظهر (سيدات البلاط) لا يدل على طابع تحقيق علمي ، لخلوه من التعليقات والمصادر فاحرى الصفحات وما يتبعها ، الى جانب الصورة التي على الغلاف !

فان النسخة التي وقفت عليها من (نساء الخلفاء) خالية من الفهارس والمراجع ، فما ادري استطت من هذه النسخة فقط ، ام ان المحقق راى ان صفر الرسالة فى غنى عن الفهارس ، او انما الغيت من طرف الدار) اقتصادا فى النفقات ! !

22) اخطاء الطبع

قلما يسلم مطبوع من خطأ مطبعي ، و (نساء الخلفاء) التي بذل محققها رحمه الله جهودا فى التحقيق والضبط لم تسلم من خطأ مطبعي !

ومن امثلة ذلك فى ص 60 بفتح الواو والصواب الميم ، وفى 135 السادس والصواب الخامس ، وفى 124 الجبازين والصواب الخبازين ، وفى 120 واترت والصواب واقرت .

وكثير من محققي الكتب يوردون فى آخر الكتاب جدولا للخطأ والصواب ولم يرد فى (نساء الخلفاء) شيء من ذلك !

23) نماذج مصورة من الاصل

فى اول الكتاب صور 3 صفحات من المخطوط لتمكين القارىء من تكوين فكرة عن المخطوط .

الاستطراد

ومن مظاهر اتساع ثقافة المحقق استطراده العابر المفيد .

فالتصوف والتشيع اخوان ، واوقف ابن الساعي كتبه على المدرسة النظامية قبل موته بقليل ، كما هو

عادة العلماء الواقفين كتبهم على المدارس ، ولعل ذلك قبله ابن النجار ، ودفن ابن الساعي بمقبرة الشونيزية بالجانب الغربي من بغداد ، وهي مقبرة الصوفية وذوي المشرب الصوفي وان لم يتصوفوا ، وفيها دفن الجنيد الصوفي الزاهد المشهور ، ولا يزال قبر الجنيد معروفا مزورا .

ومن شيوخ المؤلف ابو البقاء العكبري المنسوب اليه (شرح ديوان ابي الطيب المتنبي) المطبوع غير مرة مع انه تاليف عفيف الدين علي بن عدلان الموصلي المتوفى سنة 666 هـ .

الاعتراف بالجميل

وقد كرر المحقق التنويه بفضل ماسينيون الذي كتب اليه مخبرا بوجود المخطوطة في استانبول . كما نوه بالاستاذ (احمد آتش) التركي الذي صور المخطوطة بالمايكروفيلم (يعني الشريط الدقيق) .

وهكذا تجد الفقيد يعترف لكل ذي فضل بفضله ولا تشعر انه يحاول غمط حق احد ممن يرد ذكرهم في كلامه ، وهو اذا كان حريصا على بيان الاخطاء التي وقع فيها المؤلفون فانه يعبر عن ذلك بعبارات مهذبة ولبقة ، مع التماس الاعذار لكل مخطىء غالبا، وفي كثير من عباراته التي اوردناها سابقا امثلة على ذلك .

وقد علق على وصف الموفق بالامام : ولم يكن الموفق اماما اي خليفة ، بل كان ولي عهد ، فان صح ان هذا قول المؤلف فهو خطأ ، ولعل الاصل الامير .

التواضع

ويرجو المحقق ان لا تخلو تعاليقه من فائدة يقطفها القارىء في اثناء قراءته الكتاب ، والباحث عند استمداده منه ، ويزيد : ولا ابرىء نفسي من التقصير ولا من ذهول فان نشر كتاب مخطوط اول مرة لا يبلغ الكمال في كل الاحوال .

وهذه العبارة الاخيرة ليست من باب التواضع ولكنها الحقيقة الواقعية ، وصدق الله العظيم : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا !)

— ◆ —

هذه صورة عن ثقافة الفقيد واخلاقه العلمية كما تتجلى للناظر في كثير من آثاره ، ومنها يتجلى انه رحمه الله كان علما بارزا من اعلام النهضة الثقافية العربية في هذا العصر .

ولعل مما ساعده على ذلك انه نشأ في اول امره **ثقافة اسلامية عربية متينة خالصة** ، ولم يتصل بالفكر الاجنبي الا بعد ان تكونت شخصيته تكوينا سليما ، فلم يصب بما **اصيب به الكثيرون ممن اتصلوا بالفكر الاجنبي في حداثتهم فنجح في مسخ شخصيتهم ، وقطع صلاتهم بتراثهم الفكري والحضاري المجيد .**

رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وجزاه احسن الجزاء ، كفاء ما قدم من **خدمات جليلة للغة العربية وتراثها** واحسن عزاء الامة العربية التي فقدت فيه ركنا من أركان نهضتها ، ووفق تلامذته لمواصلة اداء رسالته في خدمة اللغة العربية وتراثها ، وعسى ان يقوم المجمع العلمي العراقي بجمع جميع مقالات الفقيد وبحوثه المتفرقة في اعداد مجلة المجمع وغيرها من المجلات وطبعها حتى يعم الانتفاع بها ، وتسهل الاستفادة منها ، فان مجلة المجمع — مثلا — على اهميتها الكبيرة محدودة الانتشار جدا في الوطن العربي.

كما ان من الواجب الاكيد ايلاء عناية خاصة لآثار الفقيد المخطوطة حتى تخرج للوجود ويستفيد منها قراء العربية في كل مكان .

وشكرا جزيلا لوزارة الارشاد على ثنيها لهذا العمل الجليل واتاحتها لهذه الفرصة التي مكنت زمرة من اهل الفكر العربي والاسلامي بآلاف العلماء والمؤلفين الذين انجبتهم في عصورها الزاهرة ، والذين قاد الكثيرون منهم الفكر الاسلامي والعربي في مختلف انحاء الوطن العربي والاسلامي عدة قرون .

الفكر العلمي العربي

في شخص العباس بن فرناس حكيم الأندلس

الأستاذ سعيد الديوه جي
عضو المجمع العلمي العراقي

ابو القاسم عباس بن فرناس بن ورداس التاكرني الاموي بالولاء ـ احد اساطين العلم والادب والفن في الاندلس .

لم نقف على ولادة هذا العالم الجليل ، والذين ترجموا له ذكروا : انه توفي سنة 274 هـ (884 م) وانه اربى على الثمانين ، فتكون ولادته في آخر القرن الثاني للهجرة (حوالي سنة 194 هـ)

اصله من برارة « تاكرنا » ونشا في قرطبة ، عاصمة الدولة الاموية ، وهي ـ اذ ذاك ـ مركز العلم والادب والفن في اوروبة ، يشدون اليها الرحال ، ويقتبسون من معارف العرب وفنونهم وصناعاتهم ، التي كانت تبهر عقولهم ، وتاخذ بالبابهم .

في هذا المحيط الزاهي بالعلوم والمعارف ، شب ابن فرناس ، وكان ذكي الفؤاد ، سريع الحفظ ، دقيق النظر .

تعلم القرآن الكريم، ومباديء الدين الحنيف في الكتاتيب التي كانت كثيرة في قرطبة ، ثم اخذ يرتاد الحلقات العلمية ، التي كانت تعقد في جامع قرطبة ، ويستمع الى ما يجري فيها من محاضرات ومناظرات ومجادلات علمية ، وما يلقيه علماء الاندلس من طريف ما اخذوه عن المشارقة .

ويقصد المجالس الادبية ، ويستمع الى شيوخها استماع متبصر ، يريد ان يستفيد مما يجري في الحلقات والمجالس ، مما كان يلقيه شعراء الاندلس وادباؤها من جميل النظم والنثر ، ومن غريب الاخبار واللغة التي اخذوها عن اهل المشرق .

وكان يتردد الى اصحاب الفنون الرفيعة ، فيستمع الى الاصوات التي وضعوها ، والآلات الموسيقية التي يوقعون عليها .

درس كتب الطب ، **وخصائص الامراض واعراضها ، وطرق الوقاية منها** ، وعلاج من اصيب بها .

درس **خصائص الاحجار والاعشاب والنباتات** ، ووقف على ما تفيده في المعالجة ، وكان يقصد الاطباء والصيادلة ويناقشهم فيما ظهر له من اطلاعه وتجاربه في هذا العلم الجليل ، الذي يحفظ صحة المجتمع ، ويقيه شر الامراض .

واشتهر بين اطباء عصره ، فاتخذه الامراء الامويون (1) طبيبا خاصا لمعالجة الاسرة الحاكمة ، يشرف على صحتهم وطعامهم ، ويرشدهم الى انجع الطرق فى معالجة مرضاهم .

درس **الفلسفة والمنطق والنجوم والعلوم الروحانية** ، وجمع الكتب التى تبحث منها ، والتى صعب الحصول عليها، وقراها قراءة مدقق ، واستفاد منها وافاد قومه .

اشتغل بالنحو ودقائق الاعراب ، واطلع على آراء النحاة فى التعليل وصار **من نحاة عصره فى الاندلس** ، يؤخذ عنه وذكره الزبيدي فى الطبقة الثالثة من نحاة الاندلس ، وقال عنه : كان متصرفا فى ضروب من الاعراب .

كان يقصد اهل الصناعات الرفيعة ، ويدقق باعمالهم وصناعاتهم ، وفنونهم الدقيقة ، ويسالهم عن سر ما لم يهتد الى معرفته بنفسه ، فاقتبس منهم صناعات ومعارف ساعدته على ابراز ما علمه ، مما يحتاج الى عمل آلات علمية .

وهكذا صار ابو القاسم العباس بن فرناس متضلعا بعدة علوم وفنون وصناعات ، وآداب مختلفة، فبرز على علماء زمانه ، بما انفرد به من معارف وعلوم لم تتهيا لغيره من اهل الاندلس ، حتى انهم اطلقوا عليه « **حكيم الاندلس** »

– 2 –

كثير هم الذين قنعوا من العلم بالامور المبسطة ، التى يسهل فهمها . وبالنظريات المجردة ينقلونها عن غيرهم ، ولم يكلفوا انفسهم عناء البحث والتدقيق فيما درسوه ، او تحقيق ما علموه ، ولم يحاولوا تطبيق العلم على العمل ، ليتاكدوا من صحة ما نقل اليهم ، او اخذوه عن غيرهم .

وابو القاسم لم يكن من هذا الرعيل القانع بالسهل المبسط ، بل **كان يدقق ما يدرسه ، ويحقق ما يفهمه ، ويتدبر ما يقراه** ، ويطبق عمليا ما يحتاج الى العمل ، ليتاكد صحة المدعى ، ويستفيد مما اخذ، فهو احد **العلماء العاملين ، الذين وضعوا اسس الحضارة العلمية والعملية فى الاندلس** : سهلوا العويص ، وشرحوا الغامض ، ويسروا العسر ، **وابتكروا آلات علمية ومعارف عملية** .

فابو القاسم من العلماء الذين علموا وعملوا : عكف على تحقيق القضايا التى درسها ، وهيأ لنفسه ما يحتاجه عمله من **آلات دقيقة ، وادوات مختلفة والاجهزة العلمية** – التى ساعدته على اظهار علومه ومعارفه عمليا، ورسم طريقة مثلى لاهل بلاده . وهي **محاولة تطبيق العلم على العمل** ، بحيث يحققون ما يدرسونه ، ويصنعون لانفسهم الآلات والادوات العلمية التى يحتاجونها من غير ان يتكلوا على غيرهم؛ وبذا يحق لهم ان يكونوا علماء عاملين ، يسعى اليهم، ويؤخذ عنهم ، ويعتز بآرائهم المؤيدة بالعمل بعد العلم .

وعلى هذا **فابو القاسم فاق اهل عصره فى طريقته العملية** ، فبرز فى علوم ومعارف اوجدها من تجاربه فى التوليد والاختراع ثم الابتكار ، ومن ذلك :

1 – **عانى صناعة الكيمياء ، وقام بتجارب وفحوص مختلفة** ، واهتدى الى حقائق ، لم تكن معروفة عند الاندلسيين ، منها : **انه استنبط صناعة الزجاج من نوع من الحجارة** ، وبذا يسر للاندلسيين صناعته من مادة بخسة الثمن ، سهلة التناول ، فانتشرت صناعته فى الاندلس ، وتفوقوا فيها .

2 – **عانى علم الفلك والتنجيم** ، راقب النجوم والكواكب فى افلاكها ومداراتها ، **وصنع الآلات التى تساعده على الرصد** . ومما صنعه **الآلة المعروفة « بذات الحلق »** ورفعها الى الامير محمد بن عبد

---

(1) اتصل ابن فرناس بثلاثة امراء – وكان مقربا اليهم وهم على التوالي :

1 – الحكم بن هشام 188 – 206 هـ = 803 – 821 م

2 – عبد الرحمن بن الحكم 206 – 238 هـ = 821 – 852 م

3 – محمد بن عبد الرحمن 238 – 273 هـ = 852 – 886 م

الرحمن الاموي ؛ وكتب عليها ابياتا من نظمه تناسب الآلة ، وما تقوم به من عمل :

قد تم ما حملتني من آلة
اعيا الفلاسفة الجهابذ دوني

لو كان بطليموس الهم صنعة
لم يشتغل بجداول القانون

فاذا رانه الشمس في آفاقها
بعثت اليه بنورها المحزون

ومنازل القمر التي حجبت معا
دون العيون بكل طالع حين

يبدون فيها بالنهار ـ كما بدت
في الليل في ظلماتهن الجون

3 ـ **عمل الميقاتة لمعرفة الاوقات** ـ وهي تقوم مقام الساعة في يومنا هذا ، ورفعها الى الامير محمد بن عبد الرحمن ، وكتب عليها من نظمه :

الا انني للدين خير اداة
اذا غاب عنكم وقت كل صلاة

ولم تر شمس بالنهار ، ولم تنر
كواكب ليل ، حالك الظلمات

بيمن امام المسلمين « محمد »
تجلت عن الاوقات كل صلاة

4 ـ **اتخذ في داره هيئة السماء** ، وصور فيها الشمس والقمر ، والكواكب ومداراتها ، والغيوم والرعد والبرق ، فكان من اعاجيب الصنعة والابتكار.

5 ـ **انه اول من طار وحلق في الهواء** ـ كما تطير الطيور وهذا من الاختراعات المدهشة التي قام بها « حكيم الاندلس » .

قام بعدة تجارب تمهيدية ، درس بها **ثقل** الاجسام ، ومقاومة الهواء لها ، **وتاثير ضغط الهواء** عليها اذا ما طارت في الفضاء ، وكان له خير مساعد على هذا تفوقه في العلوم الطبعيية والرياضية والكيمياء ، فاطلع على خواص الاجسام ، واجتمع لديه من المعلومات ، ما حمله على ان يجرب الطيران بنفسه .

كسا نفسه بريش اتخذه من سرقي الحرير (1) ، لمتانته وقوته ، وهو يتناسب مع ثقل جسمه ، وصنع له جناحين ـ من الحرير ايضا ـ يحملان جسمه اذا ما حركهما في الفضاء ، وبعد ان تم له كل ما يحتاج اليه هذا العمل الخطير ، وتاكد ان باستطاعته اذا ما حرك الجناحين ، فانهما سيحملانه ويطير في الفضاء ، ـ كما تطير الطيور ـ ويسهل عليه التنقل بهما اينما شاء .

اعلن للناس إنه يريد ان يطير في الجو ، وان طيرانه سيكون من الرصافة ـ ظاهر مدينة قرطبة ـ فاجتمع الناس فيها ليشاهدوا البطل يتهادى في سماء قرطبة .

صعد ابو القاسم فوق مرتفع ، وحرك جناحيه ، وقفز في الجو ، وطار في الفضاء مسافة بعيدة عن المحل الذي وقف فوقه ، والناس ينظرون اليه بدهشة واعجاب ، يهللون له ، وشاعرهم يقول :

يطم (2) على العنقاء في طيرانها
اذا ما كسا جثمانه ريح قشعم

ولما هم بالنزول الى الارض ، تاذى في ظهره، وفاته ان الطائر انما يقع على زمكه (ذيله) ، ولم يكن يعلم موقع الذنب في الجسم اثناء هبوطه الى الارض، فاصيب بما اصيب من أذى .

هذه اول عملية جريئة يقوم بها حكيم اندلسي، يجرب الطيران بنفسه ، وينجح بعمله الى حد ما ، **وهذا النجاح الذي سجله حكيم الاندلس ، دفع الناس**

---

(1) شقق الحرير الابيض والواحدة سرقي
(2) طم : علا ، غلب ، والقشعم : المسن من النسور .

بالاقدام على محاولة الطيران ، فكان عمله نواة طيبة، نمت وازدهرت ثم اثمرت .

على ان تقصيره فى كيفية النزول الى الارض سالما ، لا ينقص من دقة عمله ، وخطوته الجريئة ، بالاقدام على الطيران بصورة فعلية. فان كل عمل فى بدايته ، تعقبه دراسات مديدة ، تكمل نواقصه ، وتهذب طرقه ، وتحسن عمله ، وهكذا يكون فى تقدم مطرد مع الزمن ، وحاجة الانسان ، وما زالت الدراسات المتتالية تجري على الطيران، حتى شاهدنا سفنا عظيمة تطير فى الفضاء ، حاملة عددا لا يستهان به من المسافرين ، مع امتعتهم واثقالهم ، تقطع المسافات البعيدة ، بساعات معدودات ، كان هذا بفضل التجارب التى قاموا بها ، وفى مقدمتهم حكيم الاندلس ـ والفضل للمتقدم ـ

ثم اعقبه بعد قرن من الزمان ، رجل عالم فاضل من المشرق ، هو : اسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة 393 هـ (1003 م) . ولكن عمله لم يكن عن دراسة ، وانما عن خاطر خطر بباله، فكان خاتمة حياته (1) .

هذا ما قام به المسلمون فى المغرب والمشرق من محاولة الطيران ، فنجح حكيم الاندلس ، ولاقى حتفه عالم المشرق ، ولكنهما فتحا بابا واسعا لمن اتى بعدهما فى الاقدام على هذا العمل النافع .

كان العباس بن فرناس اديبا شاعرا ، وله شعر كثير فى اغراض مختلفة ، اتصل بالبلاط الاموي : فكان شاعرهم ـ كما كان طبيبهم ـ وعاش فى اكناف امرائهم ونظم لهم الشعر فى مختلف الاغراض :

مدح امراء البيت المالك ، ووصف حروبهم ومعاركهم مع الاعداء ـ وقد يشارك بنفسه فيها ـ وصف مجالس الانس والطرب ، وما فى قصورهم من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، وملاعب وكواعب، ومصائدهم ومطاردهم ـ وكان يرافقهم بها.

رافق الامير محمد بن عبد الرحمن ، لما سار الى اخماد ثورة اهل « طليطلة » مع حلفائهم النصارى سنة 240 هـ (854 م) فاوقع فيهم الامير ، واخمد الثورة بعنف وشدة وشتت الثائرين . فقال ابن فرناس يصف هذه الوقعة :

ومؤتلف الاصوات مختلف الزحف
لهوم الفلا ، عبل القبائل ملتف

اذا اومضت فيه الصوارم خلتها
بروقا تزوى فى الغمام وتستخفي

كان ذرى الاعلام فى ميلانها
قراقير فى يم ، عجزن عن القذف

بكى جبلا وادي سليط فاعولا
على النفر العبدان ، والعصبة الغلف

يقول ابن بوليس لموسى ـ وقد اتى ـ
ارى الموت قدامي وتحتي ومن خلفي

قتلت لهم الفا والفا ومثلها
والفا والفا بعد الف الى الف

سوى من طواه النهر فى مستحاله
فافرق فيه ، او تهدهد فى جرف

لقد نعمت فيه فزاة نسورنا
وسمعت الدقات قصفا على قصف

ووصف ما آلت اليه طليطلة من الدمار والتخريب ، وهدم الامير قنطرتها الشهيرة فقال :

---

(1) كان اماما فى اللغة والادب ، وخطه يضرب به المثل فى الجودة ، لا يكاد يفرق بينه وبين خط « ابن مقلة » سافر فى طلب العلم ، واخذ عن عدة شيوخ وخالط الاعراب فى بلاد ربيعة ومضر ، وصنف كتابه المشهور « الصحاح » فى اللغةواستقر فى نيسابور على التدريس والتاليف ، وتعليم الخط ، وكتابة المصاحف ، وله عدة كتب .

فكر فى الطيران ، واعتقد ان فى مقدور الانسان ان يطير اذا ما اتخذ له جناحين ، كجناحي الطير ، ولكنه لم يقم بدراسات تمهيدية يجرب بها ما افترضه ـ كما فعل حكيم الاندلس ـ فانه **صعد سطح الجامع القديم** فى نيسابور وقال :ايها الناس اني عملت فى الدنيا ما لم اسبق اليه ، فساعمل للاخرة امرا لم اسبق اليه ، وضم الىجنبيه مصراعي باب ، وتابطهما بحبل ، وطار فى الفضاء ، ـ ولم يكن موفقا بعمله ، فان مصراعي الباب لم يحملانه فى الفضاء ، بل سقطا به على الارض ومات . فكان عمله هذا دراسة سطحيةلعمل كبير .

اضحت طليطلة معطلة
من اهلها ، فى قبضة الصقر

تركت بلا اهل تؤهلها
مهجورة الاكناف ، كالقبر

ما كان يبقى الله قنطرة
نصبت لحمل كتائب الكفر

وله قصيدة يهنيء بها الامير محمد بعودته من طليطلة ، موافقا عيد الاضحى المبارك اولها :

ان القفول الذى اودى بعيدين الخ ..

ولما جدد الامير محمد قصور الرصافة ، التى كان قد شيدها جده « صقر قريش » عبد الرحمن الداخل ، وزينها بجميل الزخارف والكتابات وجعلها من اجمل القصور بهاء ورونقا ، فقال ابن فرناس فيها:

كأن قصور الارض بعد تمامه
كتبر له اخفى شخوصا من الدر

فاعجب من اقنائها الغرر التي
يقيم بهن البرد فى دعوة الحر

وتنتشر الابصار منها الى مدى
التنزه بالاطيار والوحش والزهر

كأن الذى يخفي الحديث بنجوها
على اخفض الاصوات يشدو على وتر

وكما كان يتحف الامراء بالآلات الدقيقة الصنع، كان يتحفهم بهدايا طريفة نفيسة ، نظم اربعة ابيات، وكتبها بالذهب على تفاحة ، ورفعها الى الامير محمد، اولها :

محمد اكرم مستخلف
من خلفاء الله فى الارض

فسر الامير ، وامر ان يغنى بها ، وكافا ابا القاسم عن كل بيت بألف دينار ، وقال : لو زادنا لزدناه .

كان ابو القاسم مرهف الحس ، واسع الخيال، يستهويه جمال الطبيعة ، وسحرها الخلاب ، دقيق الوصف ، وكيف لا يصف مباهج الاندلس ، ومناظرها الجميلة التى فتنت الكثير من شعرائها ، فابدعوا فى وصفها .

ومما قاله فى صفة روضة :

ترى وردها والاقحوان كأنه
بها شفة لمياء ضاحكها ثغر

وقد ابدع فى وصف اشجار النخيل الباسقات ـ الاشجار المباركة التى رافقت العربي اينما حل واستقر ـ نقلوها الى الاندلس وزينوا بها حدائقهم وبساتينهم :

حنايا كامثال الاهلة ركبت
على عمد ، تعتد فى جوهر البدر

كان من الياقوت قيست رؤوسها
على كل مسنون مقيض من السدر

ترى الباسقات الناشرات فروعها
موائس فيها ، من مداولة الوقر

كان صناعا صاغ بين غصونها
من الذهب البادي، عراجين من نخل

نشت لؤلؤا ، ثم استحالت زمردا
يؤول الى العقيان قبل جنى البسر

ووصف الصحراء ووحشتها ، وترامى اطرافها فقال :

موسومة بالبعد ، تحسب سهلها
القى السماء بحولها اطنابا

فكأنها دار تقاذف صحنها
لم يجعل الباني لها ابوابا

ومن جميل قوله فى وصف السراب :

يغلقن لجة آله ، فأمامها
حاد ، وآخر خلفها لم يلحق

فكان ذا موسى ، وذاك بأثره
فرعون ، الا انه لم يغرق

ومن تشبيهاته الجميلة ما قاله فى وصف كوز :

ومعجم لم يبق فى جثمانه
الا حشاشة مهجة لم تزهق

حنيت على كشحيه من برحائه
عضدان : فهو لموثق لم يطلق

حلت عمامة راسه فتضوعت
منا مفارقه ، بمثل الزنبق

وله شعر رقيق يستهوي القلوب ، كقوله :

فبتنا وانواع النسيم ابتذالنا
ولا غير عينيها ، وعيني كالي

الى ان بدا وجه الصباح كانه
جبين فتاة ، لاح بين حجال

وقوله متغزلا :

واحور ما يعفي العيون من الفسق
له كذب في الجد، احلى من الصدق

وللحسن في خديه شمس مقيمة
وبدر كمال لا يحور الى محق

وما العيش الا ميتة الهجر والهوى
باحور ، ما يبقى هواه ، وما يبقي

- 4 -

كان ابن فرناس موسيقيا مبدعا ، ينظم الشعر ، ويضع اللحن ، ويغني به ، ويوقع على العود ، واشتهر بما وضعه من قطع جميلة كانت من نظمه وتوقيعه ، وكان امراء قرطبة يزينون مجالسهم بانشاده وعزفه ، واكثر الامراء حبا له هو الامير محمد ابن عبد الرحمن ، غناه يوما صوتا من نظمه وتلحينه اوله :

الجهل ليل ليس فيه نور
والعلم فجر نوره مشهور

فاجزل له العطاء .

ومما يدلنا على سرعة بديهته في نظم الشعر ، ووضع الصوت المناسب وحسن توقيعه على العود ، ما رواه المرزباني (في طبقات اللغويين والنحويين) فقال :

كان محمود بن ابي جميل غلاما جوادا - وكان عاملا في اخريات ايام الامير عبد الرحمن بن الحكم - فعمل قبة ادم - بلغت النفقة فيها وفي وطائها خمسمائة دينار - فاكملت ضربها على وادي لكة (1)، وصنع ضيفا ، جمع له اصناف الكورة ، ووافق ذلك اطلاع « عبد الملك بن جهور بن يوسف بن بخت » ضياعه «بشلونة» فاستجلبه محمود مع بياض الكورة، فشهد وشهدوا، فلما تقضى طعامهم ، وصاروا الى المؤانسة - وعندهم احد بني زرياب - طلع عليهم عباس بن فرناس زائرا لمحمود ، فقام محمود اليه والتزمه ، وسر جميعهم بوروده ، ثم عرض عليه الطعام ، فطعم ، ثم صار الى المؤانسة ، ودفع ابن زرياب يغني :

ولو لم يشقني الظامنون لشاقني
حمام تداعت في الديار وقوع

تداعين فاستبكين من كان ذا هوى
نوائح ما تجري لهن دموع

فاستعادوا الصوت اعجابا ، فاعاده .

فلما تقضى غناء ابن زرياب ، مد العباس يده الى العود ، فاخذه وغنى البيتين ، ووصلهما من عنده بديهة فقال :

شددت بمحمود يدا حين خانها
زمان لاسباب الرجاء قطوع

بنى - لمساعي الجود والمجد - قبة
اليها جميع الاجودين ركوع

وكان محمود جوادا ، فقال له : يا ابا القاسم ، اعز ما يحضرني من مالي القبة وهي لك - بما فيها من كسوتي هذه - ونكون في ضيافتك بقية يومنا ، ودعا اليه بكسوة فلبسها ، ودفع اليه كسوته ، وكانوا يومهم كذلك ..

هذه القصة الطريفة عن الفنان ابن فرناس ، تطلعنا على ما كان عليه من النظم الذي يناسب

(1) مدينة غربي الاندلس

المقام ، وانه كان يضع له الصوت ، ويغني بما يعجب المبرزين في الغناء ، بل يفوقهم بذلك

— 5 —

هذا التفوق في الموسيقى والايقاع ، ساعده على حل اصطلاحات كتاب العروض للخليل بن احمد الفراهيدي (100 — 170 هـ = 718 — 786 م) احد مفاخر العرب والاسلام .

ذكر المؤرخون : لما ادخل الى الاندلس كتاب العروض ، للخليل بن احمد الفراهيدي وصار الى الامير عبد الرحمن بن الحكم ، عرضه على علماء قرطبة وادبائها ليوضحوه له ، فعجزوا عن ذلك ، وصار الكتاب مما يتلهى به في قصر الامير ، حتى ان بعض جواري القصر كان يقول لبعض : صير الله عقلك ، كعقل الذي ملأ كتابه من : مما ومما . فبلغ الخبر ابا القاسم بن فرناس ، فتقدم الى الامير ، وطلب اليه اخراج الكتاب اليه ، ففعل ، ولما قراه ابن فرناس وتدبره ، علم انه في علم العروض ، العلم الذي ابتكره الفراهيدي ، وضبط به بحور الشعر العربي ، ففك ابو القاسم غوامضه ، وشرحه لقومه ، فسهل عليهم دراسة هذا الفن الجميل والاستفادة منه .

فنولا براعته في الموسيقى والنغم ، وشعوره المرهف ، وتبصره بالغريب ، واطلاعه الواسع على دقائق هذا الفن — لما سهل عليه حل رموز الكتاب ، وتبسيطه .

— 6 —

فحكيم الاندلس ابن فرناس ، كان **من عباقرة عصره في العلوم ، والمعارف الدقيقة ، والآداب الرفيعة ، والفنون الجميلة .**

عانى صناعة الطب ، فكان من اطباء زمانه ، درس المنطق والفلسفة وعلوم الحكمة وصار من اعلامها، عكف على التجارب في الكيمياء والعلوم الطبيعية واهتدى الى امور خفيت على غيره ، متضلعا بعلم الفلك والنجوم والرياضيات ، وجاء بما ادهش قومه — وكان مع هذا كله — اديبا شاعرا نحويا لغويا ، يتقن وضع الالحان ، ويحسن الايقاع على آلات الطرب، ويطير في الفضاء ، محلقا في جو الاندلس ، ذلك لانه كان بعمله وفنه ، فوق ما عليه قومه ، فخلق في العلم والعمل .

رحم الله ابا القاسم « حكيم الاندلس » فقد كان من اعلام نوابغ الاسلام ، يفاخرون بعلمه وادبه وفنه.

اهم المصادر التي عولنا عليها في هذا البحث :

بغية الملتمس — للضبي
المغرب في حلى المغرب — نشره شوقي ضيف.
جذوة المقتبس — للحميدي .
التشبيهات من اشعار اهل الاندلس — الكتاني.
نفح الطيب — المقري .
الحلل السندسية — ارسلان
معجم الادباء — ياقوت
يتيمة الدهر — للثعالبي .
طبقات اللغويين والنحويين — الزبيدي .
وفيات الاعيان — ابن خلكان
بغية الوعاة — السيوطي
شذرات الذهب — لابن العماد
مقال في العدد 22 من مجلة العربي للاستاذ عنان .
وغيرها من المصادر ..

أعلام اللغة

أحمد فارس الشدياق

الأستاذ محمد حميد بيهم

منذ بداية القرن التاسع عشر برزت في كل من مدينة بيروت ، التي كانت مركزا لولاية تحمل اسمها، ولبنان في عهديه الاقطاعي والمتصرفية الممتازة، برزت نهضة عارمة شملت النواحي الادبية والاجتماعية والسياسية . وكان يرجع مصدرها الى اختلاط هذا الثغر والجبال المشرفة عليه باوروبا وذلك بانتقال بعض رجال الدين المسيحي الى عواصم الغرب ، وبتدفق الارساليات التبشيرية الى هذين البلدين ، وتنافسها في انشاء المدارس والكليات والمطابع ، بالاضافة الى ما تخلل ذلك من قيام الشركات الاجنبية بالمشاريع العمرانية والاقتصادية ، وفي اسفار كان يقوم بها تجار بيروت الى الممالك الاوروبية وغيرها في سبيل التبادل التجاري .

وفي اواخر القرن المذكور كان شعار النهضة اهتماما باللغة العربية وآدابها ، وقد حمل لواءهما ادباء من رجال الدين والدنيا نظموا الشعر وكتبوا المقامات وانشأوا الصحف والمدارس ليس في سوريا فحسب ، وانما في غيرها من البلاد المجاورة ، واوروبا . وعلى قول جاحظ لبنان المعاصر المرحوم مارون عبود احمد فارس الشدياق كان الرجل الاول في هذا البعث الاجتماعي ، وحامل لواء النهضة العربية .

— * —

ولد فارس الشدياق في قرية عشقوت بلبنان سنة 1804 ، ولاحوال سياسية انتقل والده منصور الى قرية الحدث على مقربة من بيروت سنة 1809 فترعرع فيها ، وتعلم في مدرسة عين ورقة . ولما مات والده انكب على المطالعة ، واحترف مهنة نسخ الكتب .

ولما مات اخوه بطرس الذي كان حبيس البطريرك الماروني في دير قنوبين خاف فارس على نفسه فعاف وطنه مغاضبا ، وسافر الى القاهرة ليكون استاذ اللغة العربية عند رجال البعثات الاميركيين . وهناك انكب على دراسة اللغة العربية وعلى الاتصال بالائمة المصريين والعلماء ، فبلغ ابعد اعماقها . ولذلك عهد اليه محمد علي الكبير والي مصر بتحرير جريدة الحكومة : « الوقائع المصرية » .

وفي سنة 1824 ذهب الى مالطة بناء على طلب المرسلين الاميركان ، ولبث في تلك الجزيرة اربع عشرة سنة يعلم في مدرسة هؤلاء ، ويصحح مطبوعات مطبعتهم .

وفي سنة 1848 طلبته وزارة الخارجية الانكليزية من حاكم مالطة ليعاون الدكتور «لي» على ترجمة التوراة ، فلبى طلبها ومكث في لندن عشر سنوات تعرف خلالها باكبر علماء اوروبا وادبائها . وهناك الف كتبه « الواسطة » و«كشف المخبا» و «الفارياق» الذي طبعه في باريس سنة 1855 .

وفي باريس الف واصدر كتبا اخرى ابرزها «سر الليالي» الذي كشف به الغطاء عن عظمة اللغة

العربية . وصادف ان جاء باريس وقتئذ احمد باشا باي تونس ، فمدحه الشدياق بقصيدة كان اولها « زارت سعاد»، ثم بعث بها اليه بعد عودة الباي الى بلاده فاعجب هذا بها ، وارسل يستقدمه الى تونس على سفينة بخارية ليبحر الشدياق عليها هو وعائلته.

وفي تونس غمر الباي الشدياق بنعمه ، وقلده اسمى المناصب، وفضلا عن مديرية المعارف عهد اليه برياسة تحرير جريدة الرائد التونسي . وفي غمرة هذه النعم اعلن فارس الشدياق اسلامه ، واضاف الى اسمه احمدا ، وتكنى بأبي العباس .

وحينئذ ، وقد ذاع صيته في الشرق والغرب ، استدعاه السلطان عبد المجيد العثماني بواسطة الباي. ولما جاء دار السعادة « اسطامبول » رحب به السلطان ، وعهد اليه بادارة المطبعة السلطانية طوال عدة سنوات . وفي سنة 1861 انشأ الشدياق جريدة الجوائب ، فكانت تنطق بلسان الشرق ، ومرجعا للصحف الاوروبية في القضايا الشرقية التي كان يطلق عليها « المسالة الشرقية » . وكانت هذه الجريدة تحمل لواء العرب والعربية الامر الذي افضى الى اسكاتها سنة 1884 .

وفي 1886 زار احمد الشدياق القاهرة ، وهو شيخ ، فاكرمه الخيديوي توفيق باشا ، ونوه بخدماته للشرق افضل تنويه ، ولكنه مع ذلك ظل يحن الى العاصمة العثمانية فعاد اليها ، وقضى نحبه فيها سنة 1887 . وقد احتفل بماتمه احسن احتفال ، واشترك فيه ممثل السلطان ، وصدرت ارادة سنية بدفنه في تربة السلطان محمود ، بينما رثته صحف العالم على اختلاف لغاتها ، ونقل البرق نعيه الى العواصم الاخرى . وقالت عنه جريدة الاجيبشيان فازيت ما يلي : « ضع الكتبة الانجليز سكيث وامرسون وداور دروث ووايكنف وبلويز في شخصية واحدة فحينئذ يمكنك ان تتصور جيدا عظمة احمد فارس الشدياق . ولو ولد الشدياق في اوروبا لدفن مع نخبة العظماء ، ولنصبت له التماثيل في اكثر مدن بلاده . »

ولكن الشدياق (على ما جاء في دائرة معارف البستاني) كان يريد ان لا يدفن في غير مسقط راسه ولذلك فان ولده سليما التمس الاذن بأن يدفن في قرية الحدث عملا بوصية والده . وكان يوم نقل جثمانه الى لبنان من اعظم ايامه، كما كان يوم استقبال جثمانه في بيروت يوما مشهودا اشترك فيه العلماء وعلى راسهم مفتي البلدة ، والاعيان والادباء ، وكانت الرايات والاعلام تمشي امام الجنازة ، ومشائخ الطرق يمشون وراءها يهللون ويكبرون .

وبعد الصلاة عليه في الجامع العمري الكبير ، وسماع المراثي من نظم ونثر (على ما ذكرت جريدة لسان الحال في اليوم التالي نقل جثمانه الى قرية الحدث ، ولكنه لم يدفن فيها ، وانما دفن على مقربة منها في محلة الحازمية على جانب الطريق بين بيروت ودمشق حيث شيدت الدولة له ضريحا مرموقا على نسق مقامات الباشوات والحكام .

— * —

في نهاية عام 1936 اجتمع في بيروت جمهرة من كبار الادباء والصحفيين والاعيان، وقرروا الاحتفال **بيوبيل الشدياق لمناسبة مرور خمسين عاما** على وفاته ، واختاروا لجنة ادارية منهم تتولى اعداد مهرجان كبير لاحياء ذكراه، ولاعادة طبع آثاره . وقد شرفني المجتمعون بانتخابي رئيسا لهذه اللجنة ، ولكن الاسباب التي حالت دون دفن الشدياق في القرية التي ولد فيها ، حالت هذه المرة ايضا دون قيام هذه اللجنة بما عهد اليها .

ونحن نترك الكلام هنا الى اديب لبنان الكبير مارون عبود . فهو قد ختم كتابه « صقر لبنان » الصادر سنة 1950 بفصل اطلق عليه اسم « صرخة في واد » : اورد فيه ما اعترض الاحتفال الخمسيني للشدياق من ملابسات وعقبات . وقال : « عندما ارسلنا الصرخة تلو الصرخة لم نحسب انها جميعا ستذهب في واد . فما اصدرنا بضع مقالات ، في نهاية عام 1936 نذكر فيها العالم العربي باديب النهضة الحديثة ، وواضع حجر الزاوية في بنيانها العلامة الاكبر احمد فارس الشدياق حتى اهاب بنا صوت من بيروت : ان انزل العاصمة ، فهبطنا اليها شاكرين للاستاذ محمد جميل بيهم دعوته الى شربنا فيها الشاي والقهوة ، واكلنا من الحلوى اقراصا مختلفة .

كنا اربعين ، ولكن غير الاربعين الخالدين ، فانتخبنا منا اثني عشر رسولا ... حملناهم الدعوة للشدياق ، وارسلناهم كالخراف ... كانت همتنا عظيمة يوم بدانا ، وتلك عادتنا ، نار هشيم ، ثم تنطفيء . فما ذاقت الدعوة حتى انبعثت الهمم ، واتانا من القاهرة نبأ الدكتور فيليب الشدياق (ابن عم المرحوم) يتبرع بمائة جنيه مصري لعمل تمثال

للفقيد ، وتوالت جلسات اللجنة المختارة حتى خطر ببالها ان تقرع باب الحكومة ، فمثلة فيليب شجعتها ... اما كرم الحكومة فكان حاتميا ... واليك ما كتبته جريدة صوت الاحرار الخطيرة على اثر تلك المقابلة تحت هذا العنوان الضخم « الجمهورية اللبنانية تقدر نوابغها » .. « اوفدت لجنة تكريم امام اللغة العربية وحجتها في القرن التاسع عشر المأسوف عليه احمد فارس الشدياق اربعة من اعضائها : السادة محمد جميل بيهم رئيسها ، والشيخ يوسف زكريا ، وكرم ملحم كرم ، ويوسف يزبك فقابلوا فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية الاستاذ اميل ادة وطلبوا اليه التلطف بقبول جعل المهرجان تحت رعاية فخامته . وقد استقبل اللبناني الاول وفد اللجنة بحفاوة وقال : « انه شخصيا يعطف على مشروعها ويقدره حق قدره ، ولكنه يطلب الى الوفد ان يجتمع بمعالي وزير التربية الوطنية ويتفق معه على تقرير الامر ، عملا بنصوص الدستور ... وذهب الوفد الى معالي الاستاذ حبيب ابي شهلا ، فلقي من وزير التربية الوطنية كل عطف وتشجيع، وقال : انه مستعد لتسهيل مهمة اللجنة بكل ما لديه من الوسائل المادية والمعنوية ، وقد تلطف وشكر اللجنة باسم الحكومة اللبنانية على اهتمامها بتكريم نابغة لبناني من نوابغ الامة العربية ، ووعد بقبول رعاية المهرجان.

وقد بسط لمعالي الوزير منهاج اللجنة لتكريم الشدياق ، ومنه اعادة طبع بعض مؤلفاته ، واختيار مختارات منها ، ثم اقامة تمثال له ، وترميم ضريحه في الحازمية ، وجعل مدة المهرجان اسبوعا كاملا يشترك فيه المستشرقون ، ووفود الاقطار العربية وشعراؤها وكتابها . ولم يفسح معالي الوزير المجال لنوفد لكي يطلب معونة الحكومة ، بل اعلن لزائريه حالا انه سيخصص مبلغا من المال تسمح به حالة موازنة المعارف يكون فاتحة الاكتتاب الذي ستجريه اللجنة لتحقيق منهاجها ، ووعد بأن تشترك مدرسة الصنائع والفنون مع احد مهندسي الحكومة لترميم الضريح ، فخرج الوفد من زيارته شاكرا » .

ومضى عبود يقول :

« راحت وزارة ابي شهلا ، وجاءت بعدها وزارة ابي اللمع ، ثم سقطت هذه وجاءت وزارة ثابت ، ولكن الوزارات لم تكن تحل وتربط ، فمشت القضية على قدم وساق الى الاضمحلال ..

وهكذا ارتخت همة لجنة الشدياق ، اذ علم الاعضاء الكرام ، والرئيس الهمام انهم ينفخون في رماد . »

وهنا اعرب المرحوم مارون عبود عن اسفه على ما اعترض يوبيل الشدياق الخمسيني من عقبات ، ولكنه قال : « فلا بأس ان تركنا التمثال للذرية فلعلها تكون خيرا منا فلجنة تمثال بودلير نامت رهاء ربع قرن » .

اما وقد مضى 35 عاما على موعد يوبيل الشدياق الخمسيني توفي خلالها الداعي الاول لهذا اليوبيل ، واشرفت على اللحاق به حين ان احدا من الذرية لم يفكر في الاحتفال بذكرى الشدياق فاني احببت ان اذكر العالم العربي بمجلة «اللسان العربي» المحترمة، بالرجل الفذ الذي خدم هذا اللسان خدمات لم يقم فيها احد سواه في عصره ، ولعل الذكرى تنفع المؤمنين .

تاريخ جامعة الدول العربية

الشيخ طه الولجي "بيروت"

كان عام 1941 بالنسبة للحلفاء مشحونا بالمفاجآت والمتاعب . وفى اثنائه احرزت قوات الالمان انتصارات عسكرية ساحقة على اكثر الجبهات الحربية سواء فى اوربا حيث سقطت فرنسا صريعة تحت اقدام الغزاة وتفشت قوات المحور بقيادة رومل على طول شمال افريقيا حتى الحدود المصرية، وبدا للناس فى كل مكان ان هتلر سيصبح سيد العالم بلا منازع.

وقد ادى هذا الوضع العالمي الى **تحريك المشاعر القومية فى بلاد الشرق العربي** فقامت الاوساط الوطنية المتحمسة باثارة الجماهير للانقضاض على السلطات الحليفة باساليب مختلفة ، بلغت احيانا حد الحركات المسلحة ، كما حدث مثلا فى العراق حيث اعلن الجيش العراقي الحرب بصورة رسمية على القوات البريطانية التى كانت ترابط فى البلاد ، واستولى على السلطة بعد ان اضطر الوصي على العرش وحكومته للهرب من العاصمة بغداد والاعتصام فى البصرة تحت حماية القوات الانجليزية التى كانت عمارتها البحرية قريبة منها .

وعلى الرغم من ان الجيوش الحليفة كانت ولا تزال قادرة على اخماد كل حركة محلية تقوم ضدها،بل هي اخمدتها بالفعل ، بالرغم من ذلك فان الحكومة البريطانية وجدت ان من مصلحتها يومئذ معالجة العواطف الوطنية عند العرب بالتي هي احسن ، فلجأت الى نفس الاساليب التى سبق لها ان اتبعتها فى الحرب العالمية الاولى (1914 ـ 1918) بيد انها فى هذه المرة لم تعتمد على موظفيها العاديين فى البلاد العربية امثال السير هنري مكماهون ، وانما كلفت وزير خارجيتها بالذات ، المستر انطوني ايدن ، باطلاق تصريح سياسي قال فيه :

« لقد خطا العالم العربي خطوات واسعة فى طريق الرقي، وهو يطمح الآن الى تحقيق نوع من الوحدة يجعل منه عالما متماسكا، ويرجو ان تساعده بريطانيا العظمى فى بلوغ هذا الهدف . ويسرني ان اعلن باسم حكومة صاحب الجلالة عن ترحيب بريطانيا بهذه الخطوة وعن استعدادها لمساعدة القائمين بها حالما تتوفر لديها الادلة على تأييد الراي العام العربي لها » .

غير انه بالرغم من المكانة الرسمية التى يتمتع بها المستر ايدن فى حكومته ، فان تصريحه المثير لم يحدث اثره المطلوب فى نفوس القادة العرب . لان هؤلاء كانوا ما يزالون غير مقتنعين بقوة الحلفاء ولا بسلامة موقفهم العسكري ، من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان العرب على مختلف اوساطهم كانوا غير مؤمنين بصدق نوايا الانكليز الذى سبق لهم ، اثناء الحرب العالمية الاولى ، ان تنكروا لوعودهم وعهودهم التى اسرفوا في اغداقها على الشريف حسين ، امير مكة ، حين استدرجوه للثورة على دولة الخلافة العثمانية الاسلامية . فلما انتصروا على اعدائهم ، لم يتورعوا عن اعتقاله فى جزيرة قبرص ، واحتلال الشرق العربي وتقسيم بلاده فيما بينهم وبين حلفائهم الفرنسيين على ما هو معروف ، ولا داعي لتكراره فى هذه المناسبة .

وكان تصريح المستر انطوني ايدن الاول بتاريخ 29 ايار 1941 . وفي 24 شباط سنة 1943 جاء ايدن بتصريح جديد ، كرر فيه ما كان قد عرضه في السابق من بذل خدمات بريطانيا لمساعدة العرب على تحقيق امانيهم في الاتحاد والتحرر ، وذلك في معرض رده على سؤال وجه اليه من قبل احد اعضاء مجلس العموم البريطاني .

ويبدو ان الظروف في سنة 1943 كانت ، بالنسبة للحلفاء افضل منها في سنة 1941 . نظرا لتحول الموقف العسكري بوجه عام الى صالحهم ، فاستقبل ساسة العرب التصريح الانجليزي الثاني بروح ايجابية ، رغبة منهم في الافادة من هذا العرض البريطاني ، الذي بدا لهم وكانه فرصة ذهبية ، لا يجوز تفويتها على امتهم ولاسيما وان الحلفاء في ذلك الحين ، ارادوا تبديد الشكوك فيما يقولونه ، فانتهزوا فرصة انسحاب قوات المحور وفي جملتها قوات حكومة فيشي التابعة لهم ، من منطقة الشرق الاوسط ، فاعلن ديغول ، رئيس الحكومة الفرنسية المؤقتة اعترافه باستقلال سورية ولبنان ، كما اعلن الانجليز عزمهم على الاعتراف باستقلال امارة شرق الاردن فيما بعد .

وبالفعل كان اول رد فعل لتجاوب العرب مع البادرة البريطانية جاء من قبل الامير عبد الله بن الحسين حاكم شرق الاردن الذي كان اول من اعرب عن استجابته لتصريح ايدن ، معلنا بان العرب سيجتمعون حالا ، لدراسة التصريح المذكور ، والتصرف على ضوء ما تضمنه من عروض ووعود .

وكان الامير عبد الله يرى ان الظرف اصبح ملائما للعمل على تحقيق حلمه في بعث مملكة له تضم البلاد السورية في جميع اجزائها التي اقتسمها الحلفاء فيما بينهم بعد الاحتلال الذي فرضوه عليها في اعقاب الحرب العالمية الاولى . فوجه مذكرة الى الحكومة الانجليزية يناشدها فيها الغاء الانتداب عن شرق الاردن اسوة بالاقطار السورية الاخرى ليتمكن من السعي مع تلك الاقطار للوحدة تمهيدا للملك الذي يطمع به . وايد الامير مذكرته هذه بان ارسل معها صورة عن قرار اتخذه مجلس الوزراء الاردني بتاريخ اول تموز سنة 1941 جاء فيه :

... « ان التصريح البريطاني الاخير على لسان المستر ايدن اولا ، ولسان السير مايلز لمبسون ثانيا ، وكذلك تصريح فرنسا الحرة على لسان الجنرال كاترو . قد قوبلا بالاغتباط والشكر من حكومة سموكم واثاحا لها ، على ضوئهما ان تدرس الموقف السياسي الحاضر في البلاد التي تتالف من سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ، وتمثل المجموعة السورية العراقية التاريخية ، وانها لترحب اجمل ترحيب بهذين التصريحين وتسجلهما وتعتبرهما اعترافا بجدارة البلاد السورية بالاستقلال والوحدة ، ودليلا على تقدير بريطانيا العظمى وفرنسا الحرة للمنافع المشتركة التي يمكن ان يضمنها استقلال البلاد العربية السورية ووحدتها للدولتين الحليفتين وللعرب انفسهم سواء في ايام السلم او ايام الحرب. وبناء على هذا الراي ترى (اي الحكومة الاردنية) ان تتفضلوا وتسمحوا لها بالاتصال بالحكومات المشار اليها والتعاون واياها على العمل لتحقيق الغايات الآنفة وجمع الكلمة وتوحيد الراي العام ، وانها تستند في اقتراحها هذا الى الامور الآتية :

تضمن تصريح المستر ايدن ان الحكومة البريطانية عظيمة العطف على قضية الاستقلال السوري وانها مستعدة لتاييد السعي الذي يبذله فريق من زعماء العرب لايجاد نوع من الوحدة العربية .. وان ذلك ليعد اكبر تاييد من الحكومة البريطانية واعظم عطف منها على القضية العربية .

ثم تضمن قرار الحكومة الاردنية ، النقاط التي رءاها مبررة لما جاء فيه .

على ان الحكومة البريطانية استقبلت مذكرة الامير عبد الله وقرار حكومته بفتور ملحوظ وكلفت معتمدها في الاردن بالجواب عليه في مذكرة جاء فيها :

« .. ان فخامة المندوب السامي (بفلسطين) قد احال الامر الى حكومة جلالته .. واوعز الي بان ابلغ سموكم رد بحكومته بالنص التالي :

« ان المثل الاعلى للوحدة العربية والاستقلال هو مستحوذ على عطف حكومة جلالته التام ، على ان القضية يرجع امرها الى تبصر العرب انفسهم ، عندما يكون الميدان اكثر جلاء مما هو عليه في الوقت الحاضر . اما فيما يتعلق بالقرار الموجود قيد النظر ، فان حكومة جلالته تلزم رايها التاكيد ان كل تقارب من الحكومة السورية او من اية حكومة اخرى من الحكومات ، كالتي تضمها حكومة شرق الاردن

نصب عينها ينبغي ارجاؤه ريثما تغدو الحالة اكثر استقرارا » .

ولم تكن استجابة الامير عبد الله هي الوحيدة التي قوبل بها تصريح ايدن من قبل العرب ، بل ان نوري السعيد قام بدوره بتقديم مذكرة عرفت يومها « بالكتاب الازرق » الى المستر كيزي وزير الدولة البريطانية في الشرق الاوسط ، وقد اعربت هذه المذكرة عن ترحيب العراق بالبادرة الانجليزية التي وردت على لسان المستر ايدن . .

بيان مصطفى النحاس باشا

ان البيانات التي اصدرها المسؤولون في الاردن والعراق لم تترك اي صدى في الدوائر العربية الاخرى لان الوضع السياسي في كلتا الدولتين المذكورتين لم يكن يحظى بتاييد هذه الدوائر ولا برضاها ، فاتجهت الانظار الى مصر كبرى الدول العربية . وفي غضون اسابيع قلائل تناقلت وكالات الانباء ان مصطفى النحاس باشا ، رئيس الحكومة المصرية كلف وزير العدل في حكومته ، المرحوم صبري ابو علم باشا بان يلقي يوم 30 اذار سنة 1943 ، باسمه وبصفة رسمية ، البيان التالي :

« انني من قديم معنى باحوال الامم العربية والمعاونة على تحقيق امالها في الحرية والاستقلال ، سواء في ذلك ، اكنت في الحكم ام خارج الحكم ، وقد خطوت في ذلك خطوات واسعة، صادفها التوفيق بان اتجه نظام الحكم في بعض الاقطار العربية الاتجاه الشعبي الصحيح. ومنذ اعلن المستر ايدن تصريحه فكرت فيه طويلا ، وقد رايت ان الطريقة المثلى التي يمكن ان توصل الى غاية مرضية ، هي ان تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية ، وانتهيت من دراستي الى انه يحسن بالحكومة المصرية ان تبادر باتخاذ خطوات رسمية في هذا السبيل ، فتبدا باستطلاع اراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمي اليه من امال كل على حدتها ، ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين ارائها ما استطاعت الى ذلك سبيلا ، ثم تدعوهم بعد ذلك الى مصر معا في اجتماع ودي لهذا الغرض ، حتى يبدا المسعى للوحدة العربية كجبهة متحدة بالفعل ، فاذا ما تم التفاهم او كاد ، وجب ان يعقد في مصر مؤتمر برياسة الحكومة المصرية لاكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه المؤتمر من القرارات محققا ما تنشده الامم العربية . »

ويمكن تفسير هذا الموقف السريع والحاسم الذي بادر الى اتخاذه مصطفى النحاس باشا من تصريح المستر ايدن ، بان مصر ارادت ان تدخل الى الحركة العربية من بابها الواسع ، وان يكون لها في هذه الحركة الدور الرئيسي الفعال ، فلا تترك ، لا للامير عبد الله ولا لنوري السعيد الاستقلال باخذ المبادرة في توجيه النشاط العربي سواء من الناحية القومية او من الناحية الرسمية ، وهذا ما يعنيه بالفعل ، تركيز بيان النحاس باشا على ان تتولى مصر بالذات الدعوة لعقد المؤتمر العربي في اراضيها وبرئاسة رئيس حكومتها دون سواه .

ونظرا لمكانة مصر في العالم العربي وفعاليتها في الميدان الدولي العالمي ، فان بيان النحاس باشا احدث تاثيره السريع لدى المحافل العربية ، فاستجابت له الحكومات العربية على الفور وكان اول المستجيبين الحكومة العراقية فاوفدت وزير داخليتها المرحوم تحسين العسكري ومعه جميل المدفعي احد رؤساء الحكومة العراقية السابقين لاجراء مشاورات رسمية مع الحكومة المصرية حول ما جاء في بيان النحاس باشا لاتخاذ الخطوات العملية التي من شانها اخراج فكرته الى حيز التنفيذ . واتفق الطرفان ، مصر والعراق ، على توجيه الدعوة الى الحكومات العربية كي ترسل ممثلين عنها للمشاركة في هذه المشاورات في مؤتمر تحضيري ، يعقد لهذا الغرض في مدينة الاسكندرية . وقد رؤى الاقتصار يومئذ على الدول العربية المستقلة وكان عددها خمسة وهي : سورية والاردن والعراق ولبنان ومصر.

وقد لبت هذه الدول الخمس دعوة الحكومة المصرية لحضور هذا المؤتمر التحضيري وفي جملتها الاردن نفسه ، الذي ارسل موافقته في كتاب حمله الى النحاس باشا نوري السعيد باشا ، جاء فيه :

حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا ، رئيس الوزارة المصرية الافخم

كتابي هذا الى مقامكم الرفيع مع حضرة صاحب الفخامة نوري باشا السعيد ، وقد زارنا بعمان وسيزور مصر ليرى رفعتكم في القضية العربية التي قد استرعى افكارنا عنها علاوة على ما يعلم فخامته من المبدا القديم الذي سار عليه بيتنا في القضية العربية . واننا لنشكر لرفعتكم على ميلكم للاخذ باليد والعمل على التعاون الاخوي الواجب علينا جميعا في اقطارنا المحبوبة ، واننا حين نكتب كتابنا هذا ، نتمنى لرفعتكم الصحة والعافية والتوفيق في جميع الاعمال » .

مؤتمر الاسكندرية التحضيري

استمر انعقاد المؤتمر الذى دعا اليه النحاس باشا فى مدينة الاسكندرية طوال المدة الواقعة ما بين 25 ايلول و 7 تشرين الاول من سنة 1943 . وفى نهايتها اصدر المؤتمرون بيانا رسميا ، عرف فيما بعد باسم « **بروتوكول الاسكندرية** » ، وجاء فى مقدمة هذا البيان :

« **انبأنا للصلات الوثيقة والروابط العديدة التى تربط بين البلاد العربية جمعاء** ، وحرصا على توطيد هذه الروابط وتدعيمها وتوجيهها الى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة ، وصلاح احوالها وتامين مستقبلها وتحقيق امانيها وآمالها ، واستجابة للراي العربي العام ، فى جميع الاقطار العربية قد اجتمعوا (اي المؤتمرون) بالاسكندرية بين يوم الاثنين 8 شوال سنة 1963 الموافق 25 سبتمبر 1943 ويوم السبت 20 شوال سنة 1363 الموافق7 اكتور سنة1943فى هيئة لجنة تحضيرية للمؤتمر العربي العام وتم الاتفاق بينهم على ما يأتي :

اولا : تؤلف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة التي تقبل الانضمام اليها ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى «مجلس جامعة الدول العربية» تمثل فيه الدول المشتركة فى «الجامعة» على قدم المساواة وتكون مهمته مراعاة تنفيذ ما تبرمه هذه الدول فيما بينها من الاتفاقات وعقد الاجتماعات الدورية لتوثيق الصلات بينها وتنسيق خططها السياسية تحقيقا للتعاون فيها وصيانة لاستقلالها وسيادتها من كل اعتداء ، بالوسائل الممكنة وللنظر بصفة عامة فى شؤون البلاد العربية ومصالحها . وتكون قرارات هذا المجلس ملزمة لمن يقبلها ، فيما عدا الاحوال التى يقع فيها خلاف بين دولتين من اعضاء الجامعة ويلجأ فيها الطرفان الى المجلس لفض هذا الخلاف ، ففى هذه الاحوال ، تكون قرارات « مجلس الجامعة » نافذة وملزمة ، ولا يجوز على كل حال الالتجاء الى القوة لفض المنازعات بين دولتين من دول الجامعة ، ولكل دولة ان تعقد مع دولة اخرى من دول الجامعة او غيرها اتفاقات خاصة لا تتعارض مع نصوص هذه الاحكام او روحها . ولا يجوز فى اية حال اتباع سياسة خارجية تضر بسياسة جامعة الدول العربية او اية دولة منها . ويتوسط المجلس فى الخلاف الذى يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة وبين اية دولة اخرى من دول الجامعة او غيرها للتوفيق بينهما . وتؤلف منذ الآن لجنة فرعية من اعضاء اللجنة التحضيرية لاعداد مشروع لنظام « مجلس الجامعة » ولبحث المسائل السياسية التى يمكن ابرام اتفاقات فيها بين الدول العربية . »

وقد تضمن هذا البيان « البروتوكول » بالاضافة الى فقراته الاساسية قرارين خاصين ، احدهما عن لبنان والآخر عن فلسطين . ويمكن تلخيص المباديء العامة الواردة فى هذا البروتوكول بما يلي :

« **التعاون فى الشؤون الاقتصادية والثقافية** والاجتماعية وغيرها وتدعيم هذه الروابط فى المستقبل » . وجرى التوقيع النهائي عليه فى ادارة جامعة فاروق الاول بالاسكندرية يوم السبت 20 شوال سنة 1363 الموافق 7 اكتوبر سنة 1944 والذين وقعوا عليه هم :

عن مصر :

مصطفى النحاس ، رئيس الحكومة
احمد نجيب الهلالي ، وزير المعارف العمومية
محمد صبري ابو علم ، وزير العدل
محمد صلاح الدين ، وكيل وزارة الخارجية

عن سورية :

سعد الله الجابري ، رئيس الحكومة.
جميل مردم ، وزير الخارجية .
نجيب الارمنازي ، امين السر العام لرئاسة الجمهورية

عن الاردن :

توفيق ابو الهدى ، رئيس الحكومة
سليمان السكر ، سكرتير مالي وزارة الخارجية

عن العراق :

حمدي الباجه جي ، رئيس الحكومة
نوري السعيد ، رئيس سابق للحكومة
ارشد العمري ، وزير الخارجية
تحسين العسكري ، وزير العراق المفوض بمصر .

عن لبنان :

رياض الصلح ، رئيس الحكومة
سليم تقلا ، وزير الخارجية
موسى مبارك ، مدير غرفة رئيس الجمهورية

اجتماع القاهرة واقرار ميثاق الجامعة

ولما كان اجتماع الاسكندرية عبارة عن مؤتمر تحضيري، والبيان الذى انبثق عنه عبارة عن بروتوكول اعدادي ، فان الحكومات العربية التى شاركت فى هذا الاجتماع ووقعت البروتوكول ، كلفت من بينها لجنة فرعية لصياغة مشروع نهائي فى تنظيم المبادىء التى تقوم عليها جامعة الدول العربية وهيكلها الاداري . وقد قامت هذه اللجنة بما عهد اليها وقدمت هذا المشروع بشقيه السياسي والاداري فى غضون مدة قليلة لم تتجاوز الاسابيع الثلاثة ، **وفى 22 «اذار سنة 1945 ، انعقد مؤتمر عربي عام اشترك فيه مندوبون رسميون عن الدول التى سبق لها ان وقعت على بروتوكول الاسكندرية من قبل** ، وقد انضم الى المجتمعين فى هذا المؤتمر مندوبون عن المملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية ، بعد جهود شخصية بذلها عبد الرحمن عزام باشا لدى المرحوم الملك عبد العزيز «ال سعود الذى لم يكن فى ذلك الوقت على علاقة طيبة مع مصر والعراق لاسباب تاريخية معروفة .

وبعد ان ناقش المؤتمرون فى القاهرة المواد التى عرضت عليهم، ادخلوا عليها بعض التعديلات التى راوها ضرورية لنجاح المؤسسة القومية التى يريدون تاسيسها ثم ذيلوا ما اتفقوا عليه بتواقيعهم. وكان ذلك فى قصر الزعفران بالقاهرة يوم الخميس 8 ربيع الثاني سنة 1364 الموافق 22 «اذار سنة 1945 . وكانت الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم ، بعد ان **الغوا كلمة «بروتوكول الاسكندرية» ووضعوا مكانها عنوانا «اخر وهو « ميثاق جامعة الدول العربية »** . والذين وقعوا هذا الميثاق نيابة عن دولهم هم السادة :

عن سورية :

فارس الخوري ، رئيس الحكومة
جميل مردم ، وزير الخارجية

عن الاردن :

سمير الرفاعي ، رئيس الحكومة
سعيد المفتي ، وزير الداخلية
سليمان النابلسي : نائب سر الحكومة

عن العراق :

ارشد العمري ، وزير الخارجية
علي جودت الايوبي ، وزير العراق المفوض بواشنطن

تحسين العسكري ، وزير العراق المفوض بمصر .

عن المملكة السعودية :

الشيخ يوسف ياسين ، نائب وزير الخارجية
خير الدين الزركلي ، مستشار المفوضية السعودية بمصر

عن لبنان :

عبد الحميد كرامي ، رئيس الحكومة
يوسف سالم ، وزير لبنان المفوض بمصر

عن مصر :

محمود فهمي النقراشي ، رئيس الحكومة
محمد حسين هيكل ، رئيس مجلس الشيوخ
عبد الحميد بدوي ، وزير الخارجية
مكرم عبيد ، وزير المالية
عبد الرزاق السنهوري ، وزير المعارف العمومية

عبد الرحمن عزام ، الوزير المفوض بوزارة الخارجية

اما اليمن فقد ارسلت الى صنعاء نسخة الميثاق حيث وقعها مندوب المملكة المتوكلية اليمنية وبذلك تكون **جميع الدول التى اشتركت فى مؤتمر القاهرة قد وقعت ميثاق الجامعة بلا استثناء .**

يوم 22 «اذار سنة 1945 هو ميلاد جامعة الدول العربية رسميا

تنص المادة العشرون من الميثاق ، وهي «اخر مادة فيه :

« يصدق على هذا الميثاق وملاحقه ، وفقا للنظم الاساسية المرعية فى كل من الدول المتعاقدة وتودع وثائق التصديق لدى الامانة العامة . ويصبح الميثاق نافذا قبل من صدق عليه بعد انقضاء خمسة عشر يوما ومن تاريخ استلام الامين العام وثائق التصديق من اربع دول ».

وقد نفذت الدول العربية المتعاقدة مضمون هذه المادة خلال ايام متقاربة ، واودعت حكومات هذه

الـدول وثائـق التصديـق على الميثـاق حســب الترتيب التالي :

المملكة الاردنية الهاشمية	بتاريخ	10 نيسان 1945
المملكــة المصريــة	بتاريخ	12 نيسان 1945
المملكة العربية السعودية	بتاريخ	16 نيسان 1945
المملكــة العراقيــة	بتاريخ	25 نيسان 1945
الجمهوريــة اللبنانيــة	بتاريخ	16 ايار 1945
المملكة المتوكلية اليمنية	بتاريخ	19 أيار 1945
الجمهورية السوريــة	بتاريخ	9 شباط 1946

وعلى هذا فانه ابتداء من يوم 11 ايار 1945 اصبح ميثاق جامعة الدول العربية نافذ المفعول بشكل رسمي ، غير ان الراى التقى بالاتفاق على ان يكـون يوم 22 اذار 1945 هو الميعـاد الرســمي لتاسيس الجامعة ، ذلك أن مندوبي الدول العربية المجتمعين في القاهرة وقعوا بمجموعهم تقريبا الميثاق في هـذا اليوم .

ونظرا لاهمية هذا الحدث القومي في تاريـخ الامة العربية ، فقد قررت جميع الدول المشتركـة في الجامعة اعتبار هذا اليوم عيدا قوميا تعطل فيه سائر الدوائر والمؤسسات العامة في بلادها من كل عام .

خـلاصــة الميــثــاق

وميثاق جامعة الدول العربية يقع في عشرين مادة اتفق عليها جميع الذين وقعوا عليه لتكون قاسما مشتركا ضمن الحدود التي تواضعوا على التزامهـا فيما بينهم ، سواء في علاقاتهم بعضهم ببعض او في علاقاتهم مع غيرهم من الدول الاجنبية .

وقد عبرت المادة الاولى من هذا الميثاق عـن طبيعة الجامعة واغراضها ومبادئها اذ نصت انه :

«تتالف **جامعة الدول العربية من الدول المستقلة الموقعة على هذا الميثاق** ، ولكل دولة عربية مستقلة الحق في ان تنضم الى الجامعـة ، فاذا رغبت في الانضمام قدمت طلبا بذلك يودع لدى الامانة العامة الدائمة للجامعة ، ويعرض علـى المجلـس في اول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب » .

كما نصت المادة الثانية على ان :

« الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسيـة تحقيقـا للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظـر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها . كذلك من اغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاونا وثيقا بحسب نظم كل دولـة منهـا واحوالهـا في الشؤون الآتية :

1 ـ الشؤون الاقتصادية والمالية ويدخل فـي ذلك التبادل التجاري والجمـارك والعملـة وامـور الزراعة والصناعة .

2 ـ شؤون المواصــلات ، ويدخل في ذلـك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

3 ـ شؤون الثقافة

4 ـ شؤون الجنسية والجوازات والتاشيرات وتنفيذ الاحكام وتسليم المجرمين

5 ـ الشؤون الاجتماعية .

6 ـ الشؤون الصحية .

مـلاحـق الميثــاق

وبعد ان عددت مواد الميثاق انواع النشاطـات المختلفة التي تقوم بها الجامعة فان منـدوبي الدول العربية الذين اشتركوا في اعداد الميثـاق بصيغتـه النهائية ، كانوا حريصين على تضمينه **ملحقا خاصا بقضية فلسطين** قالوا فيه :

« منذ نهاية الحرب العظمى الماضيـة سقطت عن البلاد العربية المنسلخة من الدولـة العثمانيـة ومنها فلسطين ولاية تلك الدولة ، واصبحت مستقلة بنفسها ، غير تابعة لاية دولة اخرى ، واعلنت معاهدة لوزان ان امرها لاصحاب الشان فيها . واذا لم تكن قد مكنت من تولي امورها ، فان ميثاق العصبة (عصبة الامم) في سنة 1919 لم يقرر النظام الذي وضعه لها الا على اساس الاعتراف باستقلالهـا . فوجودهـا واستقلالها الدولي من الناحية الشرعية امر لا شك فيه ، كما انه لا شك في استقـلال البـلاد العربية الاخرى . واذا كانت المظاهـر الخارجيـة لذلـك الاستقلال ظلت محجوبة لاسباب قاهرة ، فلا يسوغ ان يكون ذلك حائلا دون اشتراكها في اعمال مجلس الجامعة ، ولذلك ترى الـدول الموقعـة على ميثـاق الجامعة العربية ، انه نظرا لظروف فلسطين الخاصة، والى ان يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا ، **يتولى مجلس الجامعة امر اختيار مندوب عربـي من فلسطين للاشتراك في اعماله** » .

ولقد كان اختيار الشخصية العربية الفلسطينية موضوعا شائكا بالنسبة لاعضاء الجامعة ، وذلك بسبب الاوضاع الصعبة التى كانت تعانيها فلسطين تحت وطأة الانتداب الانجليزي وهموم الخطر اليهودي الذى يهددها بالزوال من خريطة العالم العربي ، وكذلك بسبب غياب زعيمها سماحة السيد محمد امين الحسيني وصحبه من قادة النضال الفلسطيني ، فى المعتقلات والمنافي السحيقة .

غير ان مجلس الجامعة راى الخروج من هذا المازق الحرج بتبني اقتراح قدمه السيد محمد صلاح الدين باشا . وهذا الاقتراح يقضي بتعيين السيد موسى العلمي ممثلا عن فلسطين فى ذلك الحين ، وكان الذى وجه نظر صلاح الدين باشا الى هذا الشخص الاستاذ محمد علي الطاهر المجاهد العربي المعروف . والسيد موسى العلمي الذى كان حينئذ مقيما بمصر هو من رجال فلسطين المثقفين الذين يتمتعون بسمعة مرموقة واسم طيب ، وكان يشغل فى بلده فلسطين ايام الانتداب البريطاني وظيفة مساعد النائب العام .

موضوع الدول العربية غير المستقلة

وكذلك فان ميثاق جامعة الدول العربية لم يشأ ان يحصر اهتمامه بالدول العربية المستقلة ، بل انه تضمن الى جانب الملحق الخامس بفلسطين ، **ملحقا اخر خاصا بالتعاون مع البلاد العربية غير المشتركة فى مجلس الجامعة** بسبب وقوعها تحت السيطرة الاجنبية كي لا تحرم هذه الدول وما هو فى حكمها من المساهمة فى نشاطات الجامعة داخل لجانها المتعددة . وقد جاء فى الميثاق فى هذا الصدد انه: « نظرا لان الدول المشتركة فى الجامعة ستباشر فى مجلسها وفى لجانها شؤونا يعود خيرها واثرها على العالم العربي كله ، ولان اماني البلاد العربية غير المشتركة فى المجلس ينبغي ان يرعاها وان يعمل على تحقيقها فان الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية يعنيها بوجه خاص ان توصي مجلس الجامعة عند النظر فى اشراك تلك البلاد فى اللجان المشار اليها فى الميثاق ، بان يذهب فى التعاون معها الى ابعد مدى مستطاع ، وفيما عدا ذلك بان لا يدخر جهدا لتعرف حاجاتها وتفهم امانيها وآمالها ، وبان يعمل بعد ذلك على صلاح احوالها وتامين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل السياسية من اسباب » .

اختيار القاهرة مقرا للجامعة

اما بصدد المكان الذي يتخذ مقرا رئيسيا لاقامة امين عام للجامعة بصورة دائمة مع الدوائر الادارية التي تتبع له مباشرة ، فقد رؤى ان يكون فى مدينة القاهرة . وقد روعي فى هذا الاختيار مكانة مصر فى العالم العربي ، وهي المكانة التي تستمد قوتها ونفوذها من الامكانات الضخمة التى تتوفر لهذا القطر الكبير سواء بالنسبة لعدد سكانه او بالنسبة للظروف المعنوية التاريخية التي جعلت منه كيانا قوميا تكاملت له اسباب الزعامة الفكرية عن طريق ما فيه من المؤسسات العلمية الكثيرة، الى جانب الزعامة الدينية عن طريق وجود الجامع الازهر الشريف فى ارضه . وعلى هذا فقد نصت المادة العاشرة من ميثاق الجامعة :

« تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية ولمجلس الجامعة على ان يجتمع فى اي مكان آخر يعينه » .

النص على مصرية الامين العام للجامعة

وتبعا لاختيار مدينة القاهرة مقرا دائما للجامعة، فان اعضاء مجلس الجامعة راوا ان يكون كذلك منصب الامين العام لهذه المؤسسة وقفا على واحد من المصريين ، لا ينازعهم فى ذلك غيرهم من الشعوب العربية . وقد اكد المجلس ذلك بالنص عليه فى الملحق الذي اضافوه فى آخر الميثاق وهو يقضي باسناد هذا المنصب الخطير الى عبد الرحمن عزام باشا نظرا لخبرته فى الشؤون العربية وسابقته فى خدمة العروبة فى مختلف اقطارها وامصارها .

الفوارق الملحوظة بين بروتوكول الاسكندرية وميثاق القاهرة

وما دمنا قد تحدثنا فيما سبق عن ميثاق الجامعة بمواده وملاحقه ، فاننا لا نرى باسا من ان نتناول بكلمة عابرة الظروف والملابسات التي جعلت من هذا الميثاق يختلف فى بعض مواده الرئيسية وملاحقه الاضافية عن البروتوكول الذي اصدره المؤتمر التحضيري فى الاسكندرية عندما اجتمع فى هذه المدينة بدعوة من مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية .